

# ماركسية تروتسكي: مناظرة نيقولا كراسو و إرنست مانديل -القسم الاول

جرت عامي 1969 و1970 مناظرة على صفحات " مجلة اليسار الجديد " بين نيقولا كراسو وأرنست مانديل. تناولت مختلف أوجه إسهام تروتسكي العملي والنظري. ننشرها لقيمتها التثقيفية . نبدأ بنص كراسو ورد مانديل الأول، على أن ننشر لاحقاً جواب كراسو و رد مانديل الثاني.

التعريب : جورج طرابيشي - دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت  
النص الرقمي: جريدة المناضل-ة

## ماركسية تروتسكي

### بقلم نيقولا كراسو

كان تروتسكي لسنين موضوعاً محرماً على الماركسيين طرقه. فصراعات الحزب البلشفي الداخلية في الأعوام العشرينات أحاطت بصورته بأهواء سياسية بالغة العنف إلى درجة استحال معها كل نقاش عقلائي حول شخصيته وأعماله. واللجنة التي أنزلها به ستالين جعلت اسمه مرادفاً للخيانة في أنظار الملايين من المناضلين في أنحاء العالم قاطبة. وبالمقابل. وفي السفح الآخر من الرأي العام. راحت أقلية مخلصه منعزلة تجل ذكراه وتقديسها وقد أرضاها أن ترى في فكره "لينينية عصرنا". والحال أن طوق التحريم هذا ما يزال مضروباً على أي نقاش حر حول تروتسكي داخل الحركة الشيوعية. حتى بعد مرور ثلاثين حولاً على وفاته وعشرة أعوام على وفاة ستالين. وهكذا تستمر المواقف اللاعقلانية من شخصه كشاهد يدعو إلى على استمرار فعالية ترسبات الماضي في عالمنا اليوم. والاستثناء الوحيد الذي يشذ عن هذه القاعدة يقدمه اسحق دويتشر في ثلاثيته التي لا تعدو أن تكون. هي ذاتها. عنصراً من عمل أوسع بكثير. ومن مفارقات الأمور أن عظمة عمل دويتشر.

بعد ذاتها. قد ثبتت على ما يبدو همة أي محاولة أخرى في أوساط الحركة الماركسية لتحليل دور تروتسكي التاريخي. وأنه لما له دلالاته فعلا إلا يكون هناك وجود لأي دراسة نقدية لكتاب دويتشر تضاهي هذا العمل رفعة وشمولا. والواقع أن هذا العمل متقدم على عصره بمسافة كبيرة إلى درجة لا يصعب معها التوكيد بأنه لما يستوعب بعد تمام الاستيعاب وبأنه لم يجد حتى الآن من يعارضه. ولن يكون استيعابه ممكنا بالأصل إلا من خلال نقاش متصل حول مختلف مستويات التاريخ السوفياتي. بما فيها المستويات التي ما تزال موضع خلاف. وإنه لمن الخطأ الإحجام عن تسليط الأضواء على هذه المشكلات الخاصة النوعية خوفا من المساس بالملحمة الثورية وتجريحها أو الخوف من الاصطدام بمؤرخها.

غاية هذا المقال هي إذن الإحاطة بهذا السؤال: كيف يمكن أن نقيم تروتسكي كماركسي؟ وهو سؤال يوجب علينا ان نقارنه بلينين (وليس بستالين) وان نحاول تبيان الوحدة النوعية التي تربط بين كتاباته النظرية وتجربته كرجل سياسة. ومن الممكن. من هذا المنظور، تقسيم حياة تروتسكي إلى أربع مراحل متميزة: 1879-1917-1917-1921-1921-1929-1929-1940. وسيكون فحوى أطروحتنا أن هذه المراحل الأربع ينبغي أن تفهم على ضوء مشكلة واحدة، اعني علاقات تروتسكي بالحزب باعتباره لتنظيم الثوري للبروليتاريا، تلك العلاقات التي سيكون لزاما علينا ان تحدد الأسس النظرية التي تتضمنها حكما. ووجهة النظر هذه، كما سنرى، تسلط ضوءا كافيا على السمات الأساسية ( الحسنات و السيئات) لفكر تروتسكي الماركسي و تفسر تقلبات حياته السياسية .

## 1917-1879

### من "عصا لينين " إلى عضو مؤسس في الحزب المنشفي .

لم يكن تروتسكي قبل ثورة أكتوبر عضوا نظاميا في أي جناح من أجنحة الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الروسي . أبلشفايا كان أم منشفيا . هذا الموقف يجد تفسيره جزئيا في الخلافات السياسية التي نشبت بينه وبين البلاشفة و المناشفة في أكثر من مناسبة.ولكنه يعبر أيضا عن اختيار نظري أعمق بعدا كان يتحكم بنشاطه كله في هذه المرحلة . يعيد دويتشر إلى الأذهان ان من

أوائل كتابات تروتسكي المعروفة مقالة عن تنظيم الحزب أنشأها في سيبيريا. وفي هذه المقالة يبدو تروتسكي نصيرا لرقابة انضباطية حازمة تمارسها لجنة مركزية قوية على الحركة الثورية. فقد كتب يقول: "ان اللجنة المركزية ستقطع كل صلاتها (بكل منظمة غير منضبطة). الأمر الذي سيؤدي في خاتمة المطاف إلى عزل هذه المنظمة عن الثورة العالمية" (1). ولقد كانت وجهة النظر هذه منسجمة مع الموقف الذي وقفه في البداية. عندما غادر روسيا في العام 1902. داعيا إلى إقامة نظام انضباطي حديدي. و ذلك أثناء المساجلة التي نشبت بين "الايسكرا" (2) والاقتصاديين في المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي-الديموقراطي الروسي في بروكسل في تموز 1903 (3). وهكذا ارتأى ان النظام الداخلي للحزب يجب ان يكون معبرا عن "تشكك القيادة المنظم" اتجاه الأعضاء. على ان يتخذ هذا التشكك شكل رقابة عمودية على الحزب.

ان مثل هذه الصيغة تستوحي روحا هي بالمرّة غير الروح التي نلقاها في "ما العمل" (4). ففي تلك الفترة كان تروتسكي قد غادر لتوه المنفى. وكان حديث عهد بالحركة الثورية. وقد لقب ب"عصا لينين". ولكن لو عقدنا مقارنة بين كتاباتهما في تلك الحقبة لاتضح لنا بلا لبس -كما سنرى- ان مرحلة تروتسكي "ما قبل البلشفية" ما كانت إلا نسحا للمظاهر الخارجية و الشكالية الخالصة من نظرية لينين في تنظيم الحزب. دون اعتبار لمضمونها السوسيولوجي. وما كانت بالتالي إلا صورة كاريكاتورية لها -صورة تسلسل هرمي للسلطة ذي طابع عسكري- غريبة كل الغربة عن تصور لينين. فلا غرو إذن ان يكون تروتسكي. الذي ما كان يركز إلى أي تصور شمولي عن الحزب الثوري. قد بدل موقفه على نحو مباغت في ذلك المؤتمر نفسه. فانتقل من قطب إلى القطب المعارض له. غير محجم حتى عن التنديد بلينين بوصفه المسؤول عن "انقسام الحزب" و مصمم خطة ترمي إلى تحويل الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الروسي إلى عصابة تأمرية بدل ان يكون تنظيم الطبقة العاملة الروسية. هكذا أضحى "عصا لينين" في أواخر عام 1903 عضوا مؤسسا في الحزب المنشفي. وفي نيسان 1904 نشر تروتسكي في جنيف "واجباتنا السياسية". الكراسة التي أهداها إلى اكسلرود (5). والتي أعلن فيها رفضه الصريح لمجمل نظرية لينين عن الحزب الثوري و أنكر بلا لبس أطروحة لينين الأساسية القائلة ان الاشتراكية كنظرية لا بد ان تحمل إلى الطبقة العاملة من الخارج عن طريق الحزب الذي يضم الانتلجنسيا الثورية.

وقد هاجم تروتسكي هذه النظرية بوصفها "استبدالية النزعة" وندد بها ببالغ التشاؤم: "تفضي نظرية لينين إلى ما يلي: تحل منظمة الحزب أولا محل مجمل الحزب. تم تحل اللجنة المركزية محل المنظمة ذاتها. و أخيرا سيحل "دكتاتور" فرد محل اللجنة المركزية". بل هو لا يحجم حتى عن الإنحاء على لينين باللائمة بسبب "رييته السيئة النية و الكريهة أخلاقيا" (6).

## الحزب والطبقة

استوحى تروتسكي نموذج الحزب الاشتراكي-الديمقراطي من الحزب الألماني . مشرطا تطابق الحزب مع الطبقة العاملة بأسرها. والاعتراض البديهي على مثل هذا التصور. من المنظور الماركسي. هو ان المشكلات الحقيقية للنظرية الثورية و العلاقة بين الحزب والطبقة لا يمكن الإحاطة بها علميا بواسطة مفهوم "الاستبدال" ونقيضه الضمني "تطابق الهوية". فالحزب والطبقة ينتميان إلى مستويات مختلفة من البنية الاجتماعية. و العلاقة بينهما هي على الدوام علاقة تمفصل. ولا يمكن ان يقوم بينهما أي "استبدال" ولا أي تطابق في الهوية. لأنهما بالضرورة درجتان مختلفتان من تركيب اجتماعي واحد. وليسا تعبيرين متشابهين أو متماثلين عن أي مستوى من مستويات هذا التركيب. ومفهوما "الاستبدال" أو "تطابق الهوية" النظريان التأمليان يحولان من البداية دون أي تحليل دقيق للطبيعة النوعية لعمل الحزب الثوري وتأثيره على الطبقة العاملة كما حدده لينين. وهما بمثابة دليل على العجز الجذري عن رؤية الدور المستقل ذاتيا بالضرورة للمؤسسات السياسية بوجه عام. وللحزب الثوري بوجه خاص. عن القوى الجماهيرية في إطار تشكيلة اجتماعية متحددة في التحليل الأخير بالاقتصاد.

ان العجز عن رؤية الطبيعة النوعية للمنظمات السياسية ودور الحزب الثوري-وبعبارة أخرى انعدام أي نظرية عن الحزب- يفسر تقلبات تروتسكي المباغثة والاعتباطية تجاه التنظيم الحزبي في تلك الأعوام. وهذه التقلبات لها دلالة بسيكولوجية ليس إلا. فهي محض تعبير عن التردد بين نمطين من السلوك. نمط "تعسفي" ونمط "متحلل" (هذا التردد سيبرز فيما بعد أيضا في التقلبات المفاجئة في موقفه من شيوعية الحرب ونضاله ضد البيروقراطية). والتعارض المجرد بين هذين النمطين يفضح الطابع ماقبل الماركسي لأسلوبه في طرح المشكلات.

وليس لتلك التقلبات من أساس نظري باستثناء أنها تزيح النقاب عن ثغرة بل عن منطقة عذراء في فكر تروتسكي.

إلا ان هذه الثغرة مرتبطة بإحساس تنبؤي بالغ بالقوى الاجتماعية الجماهيرية . ففي أواخر عام 1904 انفصل تروتسكي عن الجناح المنشفي وارتبط بصلة فكرية مع بارفوس. وهو مهاجر روسي من الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الألماني. وبذلك تأكد بسرعة وهن ارتباطاته بأي تنظيم كان. بيد ان هذا التسبب كان السبب . مهما كان ذلك غريبا . في صعوده السريع في ثورة 1905. تلك الانفجارية العفوية التي لم يتح لأي تنظيم الهيمنة عليها قبل ان يتلاشى زخمها وتهزم. فلقد فاجأت هذه الثورة البلاشفة و المناشفة معا. ولم يصل قادتهم إلى روسيا إلا بعد تأخير كبير. أما تروتسكي. الذي كان في بطرسبورغ من البداية. فقد تكيف بسرعة مع انتفاضة أكتوبر الجماهيرية. على وجه التحديد لأنها لم تكن موجهة من قبل أي حزب سياسي منظم كان. ولم يستغرق وقتا طويلا في تسلم قيادة سوفيت بطرسبورغ. ويلاحظ دويتشر محقا ان تروتسكي قد جسد من خلال هذا النجاح على وجه التحديد "عدم نضج الحركة". وانعدام النضج هذا هو الذي أدى . في فترة وجيزة. إلى هزيمة الثورة هزيمة نهائية. وبعد خمسة شهور شيعت جنازة العفوية في تاريخ حركة الطبقة العاملة الروسية.

## "نتائج وتوقعات"

ان هذه التجربة هي التي بلورت مع ذلك أولى كتابات تروتسكي و أهمها: "نتائج و توقعات" التي حررها في السجن في عام 1906 ويشتمل هذا الكتاب على جميع عناصر تصوراته اللاحقة كما سيعرضها في عام 1928 في أهجيته: "الثورة الدائمة". بيد انه ينطوي على ما هو أهم من ذلك. فقد كان بلا مراء استقرارا مسبقا باهرا للسمات الطبقيّة الرئيسية لثورة أكتوبر 1917. "في وسع البروليتاريا ان تستولي على السلطة في قطر متأخر اقتصاديا قبل استيلائها عليها في بلدان رأسمالية متقدمة... والثورة الروسية, تنتج شروطا يمكن معها للسلطة... ان تنتقل إلى يدي البروليتاريا قبل ان تتاح لسلطة البرجوازية الليبرالية فرصة إظهار مواهبهم السياسية ... ولسوف تبدو البروليتاريا وهي في سدة السلطة في نظر الفلاحين وكأنها محررتهم"(7).

## "الثورة الدائمة"

لقد توقع تروتسكي أن تذرر الطبقة الفلاحية الروسية و ضعف البرجوازية  
سيمكنان الطبقة العاملة من الاستيلاء على السلطة على الرغم من أنها أقلية في  
الأمة. وستكون مهمتها فور استيلائها السلطة كسب تأييد الجماهير الفلاحية بأي  
ثمن, وستكون مضطرة إلى الانتقال من التدابير "الديموقراطية" إلى لتدابير  
"الاشتراكية" دونما انقطاع في الاستمرارية. هذا ما أطلق عليه تروتسكي  
"الثورة الدائمة"-وهو اصطلاح غير مناسب يشهد على افتقاره إلى الدقة  
العلمية حتى في أعرق نظراته. فهذا الاصطلاح الذي يوحي باشتعال متواصل  
في كل مكان و في كل زمان- مهرجان ثوري ميتافيزيقي- قد أفسح المجال أمام  
خصوم تروتسكي و أنصاره على حد سواء إلى الانجراف وراء تأويلات  
مغلوطة. وهذا الطابع المثالي و الرومانسي لصيغة "الثورة الدائمة" قد أوقع  
تروتسكي نفسه في خطأ فكري فادح, إذ خلط بين مشكلتين متميزتين جوهريا :  
مشكلة الطابع الطبقي للثورة القادمة في روسيا (انتقال متصل وتدرجي من  
مطالب ديموقراطية إلى مطالب اشتراكية), ومشكلة قدرة الثورة الروسية على  
الاستمرار امميا. فقد أعلن تروتسكي مرارا وتكرارا في ذلك المؤلف استحالة  
مقاومة الثورة الروسية لهجمات الثورة المضادة بدون مساعدة ثورات متواقة  
معه في أوروبا الغربية. و"منطق" هذه الأطروحة مشتق من اللفظية المبهمة  
لتعبير "الثورة الدائمة"-تلك الصيغة التي أتاحت لتروتسكي الانتقال من الطابع  
القومي للثورة في روسيا إلى الشروط الأممية لبقائها واستمرارها وكأن  
المشكلتين درجتان في سلم آلي الحركة, "دائم الصعود إلى الأعلى. ولا نغالي  
إذا قلنا ان لا مشروعية هذه الطريقة في التحليل أكثر من ظاهرة للعيان, ولقد  
شوهدت أطروحات تروتسكي جذريا. إلا ان هذا لا يقلل شيئا من أهمية تأثيره  
المبينة إذ تنبأ بالطبيعة الأساسية لثورة اكتوبر قبل احد عشر عاما من  
حدوثها , في وقت كان فيه سائر القياديين الروس ما يزالون ياخذون بتنبؤات  
بليخانوف الكلاسيكية. بيد ان هذه المأثرة لا بد من هنا بالذات ان توضع في  
موضعها الصحيح من زاوية الأحداثيات النوعية لماركسية تروتسكي.

غياب الحزب

ان "نتائج وتوقعات" لمحاولة مرموقة في التحليل الطبقي. إلا أنها تلفت النظر بالقدر نفسه من ناحية افتقارها إلى كل تحليل لدور التنظيم السياسي في النضال الاشتراكي. فهنا أيضا نجد الحزب غائبا تماما عن "السيناريو" الذي يضعه تروتسكي للثورة القادمة. فهو عندما يناقش الشروط المسبقة للاشتراكية (تخطيط الإنتاج، غلبة المصانع الجبارة، دكتاتورية البروليتاريا)، لا يذكر في أي موضع الحزب ووظيفته. وفي الوقت الذي يهاجم فيه البلاكية والفضوية يكتفي من جهته بان يعلن: "ان الاشتراكية-الديموقراطية تتصور الاستيلاء على السلطة عملا واعيا تؤديه الطبقة الثورية" (8). وبذلك يكون قد ضرب صفحا عن الطليعة.

ولا يرد ذكر الأحزاب في هذه المقالة التي تتألف من مئة صفحة غير مرة واحدة، وذلك حينما ينتقد تروتسكي بذكاء وبعد بصيرة الأحزاب الاشتراكية-الديموقراطية الغربية. ولكن انتقاداته على صحتها تتضمن عدا صريحا لوجود حزب ثوري (9). وعندما يتطرق تروتسكي إلى النضال السياسي في روسيا، لا يشير مطلقا إلى دور المنظمات الثورية، بل يكتفي بالكلام عن القوى الاجتماعية.

ولئن كان تروتسكي لا يعي البتة أهمية مشكلة الحزب، فانه يدلل بالمقابل على وعي كامل بأهمية مشكلة الدولة بوصفها جهازا بيروقراطيا و عسكريا. فهو يسرد على نحو مثير جذاب الدور التاريخي للدولة الروسية في تكوين المجتمع الروسي الحديث. وقد اقتبس تروتسكي في تحليله هذا الكثير عن المؤرخ الليبرالي ميليوكوف وعن زميله بالفكر بارفوس. بيد ان بلاغة هذا الاستطراد تظهر بمزيد من الجلاء التزامه الصمت بصدد مسألة الحزب. وهذا الاستقطاب لم يكن عارضا أو وليد الصدفة. فهو سيتكرر في سياق عملي حاسم في عصر لاحق.

ان النتائج المباشرة لهذا النقص في فكر تروتسكي ستبرز للعيان بصورة جد ملموسة بعد خروجه من السجن. فمن 1907 إلى 1914 ستركز عمل تروتسكي السياسي على جهود متناوبة وغير مثمرة للجمع بين شتى التيارات المتعارضة في الاشتراكية-الديموقراطية. وقد انتهى به الأمر في مسعاه هذا إلى تشكيل "كتلة أب" (10) القصيرة العمر و المفتقرة للأسس النظرية. ولم يسهم البتة في جهود بناء الحزب البلشفي. ومن هنا فانه لم يكتسب تجربة الحياة الحزبية التي حصل عليها معاصروه، ستالين وزينوفيف وبوخارين، إبان فترة التكوين تلك. ويلاحظ دويتشر بسداد رأي: "ان مرحلة 1907-1914

تشكل في حياته فصلا خاليا إلى حد يدعو للعجب من الانجازات السياسية ... ولئن كانت كتاباته في هذه المرحلة رائعة من وجهة نظر الصحافة و النقد الأدبي، فإنها خاوية بالمقابل من أي نص سياسي نظري... وعلى العكس من ذلك لينين، بمساعدة أنصاره، كان يعمل في ذلك الحين على بناء الحزب. بينما كان رجال من أمثال زينوفيف وكامينيف و بوخارين-ثم ستالين فيما بعد- يرتقون إلى المستوى الذي أهلهم للقيام بدور رفيع في الحزب عام 1917. وبالمقابل فإن هذه الفترة لم تضيف شيئا يذكر، ان لم نقل: لم تضيف شيئا على الإطلاق، إلى السمعة التي كان تروتسكي قد اكتسبها بين 1904 و 1906" (11).

## "الانتلجنسيا و الاشتراكية" (12)

من الخطأ مع ذلك الاعتقاد بان تروتسكي لم يكتب شيئا مهما في هذه الفترة الانتقالية الطويلة. فقد حرر مقالة حاسمة الأهمية في تسليط الضوء على جوهر فكره السياسي: "الانتلجنسيا و الاشتراكية" المكتوبة في عام 1910. وقد اظهر فيها عداا مريرا تجاه المثقفين داخل الحركة الاشتراكية وخارجها على حد سواء. فقد رأى في المثقفين، من منظور ما قبل لينيني، أفرادا من منشأ بوجوازي، لا يتعاملون إلا مع "الأفكار" أو "الأدب"، ومنفصلين جوهريا عن البروليتاريا و النضال السياسي. والصورة النموذجية للمثقف هي على الدوام صورة "أديب الصالونات". وهذه الصورة هي على وجه التحديد الصورة التي ترعاها البرجوازية بنفسها إذ تفصل جذريا النشاطات "الدنيوية" (الاقتصاد والسياسة) عن "الفن" و "الفكر" وتجعل من المشاغل الباطنية و البعيدة المتناول المثل الأعلى للمثقف. أضف إلى ذلك ان نزعة العدا للمثقفين، تلك النزعة المبتذلة التي تروج لها طبقة عاملة انعزالية منغلقة على ذاتها، ليست إلا صدى لذلك التصور البرجوازي: إذ تأخذ كلمة "المثقف" معنى تحقير يا يشير إلى هاو متقلب أو طفيلي أو جاحد مرتد. وغني عن القول ان الماركسية لا تمت بصلة إلى مثل هذا التصور. ولكننا نستطيع انطلاقا من هذه الواقعة على وجه التحديد ان نفهم لماذا لم يكن اللقاء الظاهري بين مواقف تروتسكي ولينين في عام 1903، بصدد تنظيم الحزب، أكثر من مجرد لقاء شكلي وخارجي. فنظرية لينين في تنظيم الحزب كما عرضها في "ما العمل؟" لم تكن تنفصل في نظره عن نظريته عن دور المثقفين وطبيعتهم في حزب ثوري، تلك

النظرية التي تتلخص فيما يلي: 1- أن المثقفين البورجوازيين الأصل لا غنى عنهم لتأسيس حزب ثوري، لأنهم وحدهم القادرون على تمكين الطبقة العاملة من استيعاب الاشتراكية العلمية. 2- ان العمل المشترك داخل الحزب الثوري يلغي كل تمايز بين " المثقفين " و "العمال" . وقد طور غرامشي، كما هو معروف ، نظرية لينين هذه في تحليله الشهير للحزب الثوري ( الذي شبهه ب"الأمير الحديث" ) الذي يصبح جميع أعضائه مثقفين من نمط جديد.

إن هذا التصور المركب يتناقض مع قبول تروتسكي بالأحكام التقليدية وبكل ما يترتب عليها من آراء مسبقة . فعندما كان يتكلم عن المثقفين كان الفكر يمتد به إلى حلقات موسكو الأدبية الباطنية التي هاجمها فيما بعد في كتابه "الأدب والثورة" . وكان يجهل النمط الجديد للمثقفين الذين كانوا يتكونون في الحزب البلشفي وبواسطته. وبكلمة واحدة ، لم يكن تصوره عن المثقفين وعن علاقاتهم بالحزب الثوري يقوم على أي أساس نظري ، بل كان محض موقف اعتباطي. وهو يؤكد بالحرف الواحد في مقالته الصادرة عام 1910 بان عدد المثقفين في صفوف الحركة الاشتراكية الأوروبية يتناقص اطرادا مع نموها. وهذا ينطبق أيضا على الطلاب:"لم يكن الطلاب الأوروبيون يمثلون ، عبر تاريخهم كله، غير مقياس ضغط الطبقات البورجوازية" ( 13) . والواقع ان زبدة تحليله للعلاقات بين المثقفين والطبقة العاملة هي بمثابة رفض فظ للمثقفين ، ذلك الرفض الذي يبرهن على مدى عجزه عن استيعاب " ما العمل؟ " (14). كتب يقول : " إذا كان الاستيلاء الفعلي على أجهزة المجتمع مرهونا بانضمام الانتلجنسيا إلى حزب البروليتاريا الأوروبية، فإن فرص الجماعة ستكون جديدة بالرثاء حقا " . وإذا أخذنا بعين الاعتبار موقفه العام، اتضح لنا ان نزعته "المركزية " العارضة في عام 1903 كانت ميكانيكية وهشة. فقد كانت محاكاة سطحية للينينية ، صورة كاريكاتورية عسكرية لانضباطيتها ومنفصلة عن الدلالة الداخلية لهذه الانضباطية : تحويل "العمال" و "المثقفين" إلى ثوريين بفضل ممارسة سياسية موحدة. والدور السياسي الوحيد الذي اقر به تروتسكي للمثقفين كان دورا " استبداليا "، وذلك في مقالة مكرسة للانتلجنسيا الروسية على وجه الخصوص(15). ولقد أدان تروتسكي في هذه المقالة الديسمبرين (16) النارودنيين والماركسيين دونما تمييز باعتبارهم جماعات تنصب نفسها بديلة عن الطبقات الاجتماعية التي تدعي تمثيلها. ويرى دويتشر في هذه النظرة "عرضا متشائما" لتاريخ روسيا. وهكذا ،ومرة أخرى، نجد ان انعدام أي

نظرية عن المستويات أو الحالات المختلفة من البنية قد قادا تروتسكي إلى فكرة تبادل أفقي بين "المتقنين" و"الطبقات" على نحو يسمح لأولئك بان يكونوا البديل عن هذه. والاستنتاج يفرض نفسه بنفسه: ان دخول المتقنين إلى حلبة الحياة السياسية هو في حد ذاته اغتصاب على حساب البروليتاريا. ولنكرر هنا بان ما يفتقر إليه تروتسكي هو مفهوم الحزب كبنية لها استقلالها الذاتي تقوم بدمج وتحويل ظاهرتين مختلفتين:الانتلجانسيا و البروليتاريا. وليس ثمة من معنى ، في سياق هذا التصور، للحديث عن"استبدال" عنصر بآخر. فما دامت هاتان الظاهرتان غير قابلتان للقياس بمقياس واحد ، فإنهما غير قابلتين أيضا لان تحل إحداهما محل الأخرى، ولكنهما قابلتان للتغيير بواسطة الممارسة السياسية الجديدة الممثلة بالحزب الثوري.

يمكن إذن تلخيص تاريخ تروتسكي قبل 1917 على النحو التالي : لقد كان على الدوام جنديا غير نظامي يعمل خارج الصفوف المنظمة للحركة العاملة. ومع انه دلل على نفاذ بصيرة حدسية فريدة بتنبؤه بالطابع الطبقي للقوى التي ستحقق الثورة الروسية ، إلا ان نفاذ البصيرة هذا كان مقترنا بتقصير عميق ودائم في فهم طبيعة الحزب الثوري ودوره —وهذه نقیصة مرتبطة بتصور ما قبل ماركسي للنظرية و التنظيم. وحتى في عام 1915 عبر بوضوح وجلاء عن قناعته بان الحزب هو "ظاهرة ثانوية" ملحقة دونما ضرورة بصراع الطبقات عندما كتب:"من الممكن ان يقوم بين موقف حزب من الأحزاب وبين مصالح الفئة الاجتماعية التي يركز إليها شيء من عدم التطابق قد يتحول فيما بعد إلى تناقض عميق. وقد يتغير مسلك الحزب تحت تأثير حالة الجماهير المعنوية. هذا أمر لا يقبل جدالا. ولكن هذا وحده غير كاف، ضمن جملة أسباب أخرى ، حملنا على الامتناع ، في حساباتنا ، عن الاعتماد على العناصر الأقل ثباتا والأقل جدارة بالثقة مثل الشعارات وتكتيك الحزب، لتستند بالمقابل إلى عوامل تاريخية أكثر ثباتا مثل بنية البلاد الاجتماعية وميزان القوى الاجتماعية واتجاهات تطورها"(17). ان هذا الجهل بدور الحزب اللينيني يفسر عدم مساهمة تروتسكي في بناء الحزب البلشفي من عام 1907 فصاعدا. وقد انتقد بنفسه فيما بعد موقفه بصراحة واستقامة وصحو فكر:" لم اسع قط إلى تأسيس مجموعة على أساس أفكار الثورة الدائمة. وكان موقفي داخل الحزب موقفا توفيقيا، ولئن كنت قد حاولت في بعض الأحيان ان أشكل مجموعات، فإنما على هذا الأساس التوفيقى وحده. وكان ميلي إلى التوفيق ينبع من شيء يشبه الجبرية الاجتماعية-الثورية. فقد

كنت اعتقد ان منطوق صراع الطبقات سيرغم جميع الأجنحة على إتباع خط ثوري واحد. وكان المغزى التاريخي لسياسة لينين ما يزال غائبا عن إدراكي في ذلك الحين، اعني سياسته في تحديد الحدود الأيديولوجية التي لا تقبل مساومة ، وفي الانشقاق عند الضرورة لتشكيل وصهر نواة حزب ثوري حقيقي ... وفي جميع المسائل الهامة التي اختلفت بصددها مع لينين على صعيد التكتيك والتنظيم، كان هو المحق" (18).

وفي وسعنا الآن تحديد الانحراف النظري الخاص بفكر تروتسكي . فقد كانت الماركسية على الدوام وتقليديا ضحية تشويه أطلق عليه اسم "النزعة الاقتصادية". وجوهر هذه النزعة إرجاع جميع مستويات تشكيلة اجتماعية معينة إلى حركة الاقتصاد وحدها ، التي تصبح بذلك "ماهية" مثالية لا تعدو الفئات الاجتماعية والمؤسسات السياسية و المنتجات الثقافية ان تكون غير "مظاهر" لها . ولقد انتشر هذا التحريف و ذاع على ربح في أوساط الأممية الثانية، مع كل ما يترتب عليه من نتائج سياسية على صعيد الممارسة. وكان خطيئة مميزة لليمين المسيطر على الأممية . إلا ان ما لم يحظ بالانتباه الكافي هو ان الجناح اليساري من الأممية كان يعاني من انحراف مناظر. وفي وسعنا، تجنبنا للالتباس، ان نطلق عليه اسم "النزعة السوسيولوجية". فما يجري تجريده هنا وفصله عن الكلية التاريخية المركبة واقنمته مثاليا ليس الاقتصاد وإنما الطبقات الاجتماعية بوصفها المصدر المولد لكل وضع سياسي محدد. هكذا يصبح صراع الطبقات "الحقيقة" الباطنة المباشرة لكل حدث سياسي . وتصبح القوى الاجتماعية المحرك الأوحد للتاريخ ولئن كانت النزعة الاقتصادية تؤدي حكما وبطبيعة الحال إلى السلبية والذيلية . فإن النزعة السوسيولوجية تؤدي على العكس إلى "الإرادية". وقد مثلت روزا لوكسمبورغ في الأممية الثالثة منتهى منطوق هذا الاتجاه الذي تلبس شكل عبادة صريحة للعفوية. كما مثل تروتسكي شكلا آخر خاصا من التيار نفسه. ففي كتاباته تبدو الجماهير الشعبية وكأنها القوى المتحركة بالمجتمع بدون تدخل المنظمات السياسية والمؤسسات باعتبارها مستويات ضرورية ودائمة من التركيب الاجتماعي. وعلى النقيض من ذلك تتحدد ماركسية لينين بمفهوم الكلية المركبة التي تكون جميع المستويات - الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأيديولوجية- فعالة فيها على الدوام. والتي ينتقل فيها المركز الرئيسي للتناقضات بين مختلف المستويات.

وبكلمة واحدة ، ان المصدر الأول والأخير لأخطاء تروتسكي النظرية ، قبل الثورة وبعدها سواء بسواء ، هو استقطاب القوى الشعبية وعزلها عن ذلك المركب المتعدد المستويات .

1921-1917

رجل الدولة

لقد غير الانفجار المباغت لثورة شباط ميزان القوى السياسية داخل الحركة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية . وقد حرر الوضع الجديد تروتسكي على حين غرة من ماضيه. ففي غضون أشهر قلائل ابتعد عن حلفائه المناشفة لينحاز إلى المواقع البلشفية. وبدأ يظهر كثوري عظيم. كانت هذه هي المرحلة البطولية من حياته حين ألهب خيال العالم بوصفه مهندس انتفاضة أكتوبر والقائد العسكري للحرب الأهلية . وكانت أيضا المرحلة التي برز فيها خطيبا مفوها للثورة. فقد كان في ان واحد دانتون وكارنو(19). محامي الشعب العظيم والقائد العسكري الأعلى للثورة الروسية . ويجسد تروتسكي في هذه المرحلة وفي نظر المراقبين الأجانب ، المعادين والمؤيدين، النموذج المثالي للثوري . فقد بدا لهم وكأنه يحقق الاستمرار والاتصال بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية. أما لينين فيبدو إلى جانبه رجلا عاديا بعيدا كل البعد عن أبطال 1789 البلغاء. والفرق بين الاثنين جوهرى طوال الفترة التي عملا فيها جنبا إلى جنب بتعاون وثيق. ولن يفلح تروتسكي ابد في ان يتكيف تماما مع الحزب البلشفي . ولقد وجد نفسه في تموز 1917 على حين غرة في قمة التنظيم - اللجنة المركزية - من دون أي خبرة مسبقة بحياة الحزب وعمله.

ان شخصيته العامة لا تتفق وصورته داخل الحزب حيث كان على الدوام موضع شبهة كدخيل أو كمناضل من مناضلي ربع الساعة الأخير. وانه لمما لهو دلالاته من هذه الزاوية ان يكون زميله وحليفه بريوبراجنسكي قد أباح لنفسه حتى في عام 1928 ان يستخدم تعبير "نحن البلاشفة القدامى" تمييزا لمواقفه عن مواقف تروتسكي . ظاهر للعيان إذن ان البلاشفة القدامى لم يقبلوا به قط تمام القبول كواحد منهم . وهذا الإقصاء ملموس لمس اليد إبان الثورة و الحرب الأهلية . فقد كان تروتسكي محرك الدولة البلشفية المعبأة عسكريا زمن الحرب . ولكنه لم يكن من رجال الحزب وما كانت له مسؤوليات محددة في ميدان التنظيم والتعبئة الحزبيين إبان تلك السنوات.

والواقع ان سهام النقد قد وجهت إليه من قبل بعض البلاشفة الذين انحوا عليه باللائمة لأنه طبق في الجيش تدابير معادية للحزب. وبالفعل كان تروتسكي عاقدا النية على تقوية سلطة الضباط المحترفين ذوي الماضي القيصري داخل الجيش الأحمر. وعارض وضعهم تحت رقابة المفوضين السياسيين المعتمدين من قبل الحزب. وقد أثارت هذه المسألة- التي كادت تتجول إلى صدام مباشر مع ستالين فوروشيلوف- جدالا حاميا في المؤتمر الثامن عام 1919 .

ولقد محض لينين تروتسكي حينذاك ولكن الشعور بالعداء الحزبي كان واضحا في تعليمات المؤتمر السرية. "ان تروتسكي رجل دولة ، ولكنه ليس رجل حزب" (20). ان صرخة ميكويان هذه في المؤتمر الثاني تعكس بدقة رأي الجهاز الحزبي فيه .

كانت موهبة تروتسكي الخطابية تكمل موهبته كقائد عسكري. ولكن كلتا الموهبتين هاتين كانتا تتلائمان بصعوبة مع النشاط التنظيمي داخل الحزب. فمهمة المنظم السياسي إقناع أفراد أو جماعات بصحة المواقف التي يدعو إليها وبقدرته على وضعها موضع تطبيق. وهذا يتطلب صبورا عظيما و مهارة في المناورة الذكية في معركة سياسية صعبة تتمتع فيها الأطراف الأخرى بنفس المقدرة على النقاش البليغ و اتخاذ القرارات. وهذا بعيد كل البعد عن موهبة الخطيب الجماهيري. فلئن كان تروتسكي يتمتع بموهبة فذة في مخاطبة الجماهير. فان قدرته هذه على اجتذابها و شدها إليه كانت بالضرورة عاطفية انفعالية تتلخص في إيصال شحنة من روح النضال واليقظة إليها. ولقد كانت علاقته بالجماهير، بوصفه خطيبا شعبيا، علاقة من طرف واحد. إذ كان يسعى إلى تعبئتها في النضال ضد الثورة المضادة . كما كانت عبقريته العسكرية ذات طبيعة مشابهة. فمع ان تروتسكي كان عديم الخبرة في تنظيم الحزب . ومع انه كان عديم الاهتمام حتى باكتساب هذه الخبرة. فقد نجح في غضون عامين من الزمن في تشكيل جيش احمر من خمسة ملايين رجل ابتداء من لاشيء. وفي إزار النصر له على الجيش الأبيض وحلفائه الأجانب. ان فنه في التنظيم "إرادي" إذن في جوهره. ولقد منح من البداية سلطة تنظيم الجيش . وكان يعتمد ، بصفته مفوض الشعب لشؤون الحرب، على هيئة لينين و الدولة السوفياتية. أي انه لم يضطر إلى كسب السلطة في حلبة السياسة عن طريق فرض نفسه على أقرانه. وإنما كان يستمد هذه السلطة من منصبه كقائد عسكري ومما يترتب على هذا المنصب من قدرة على فرص الطاعة. وبذلك تتضح أصرة القربى بين القائد العسكري و الخطيب الشعبي. فقد كان تروتسكي

في كلا الدورين إراديا . إذ كان عليه كخطيب جماهيري ان يوجب الانفعالات والمشاعر لتعبئة الجماهير من اجل أهداف محددة . كما كان عليه كواحد من أعمدة الدولة السوفياتية ان يصدر أوامره إلى مرؤوسيه للوصول إلى أهداف محددة هي الأخرى. وفي كلتا الحالتين كان قوام دوره تامين الوسائل لإدراك غاية محددة مسبقا. وهذا النوع من المسؤولية يختلف كل الاختلاف عن مهمة تغليب هدف جديد في سياق تنافس التيارات وتصادمها داخل تنظيم سياسي معين. والإرادي النزعة يكون منسجما مع نفسه عندما يستحث الجموع أو يسير الجيوش. ولكن لا يجوز لنا ان نخلط هذا النوع من المهام بالقدرة على قيادة حزب ثوري.

### من المشكلات العسكرية إلى المشكلات الاقتصادية

في عام 1921 عقد إزار النصر للبلاشفة في الحرب الأهلية. وقد حتم الفوز على الحزب البلشفي ان يغير وجهته جذريا : ذلك ان المشكلات الاقتصادية قد باتت لها الأولوية على المشكلات العسكرية . وبهذا أصبح الهدف الاستراتيجي الرئيسي إعادة بناء الاقتصاد السوفياتي وإعادة تنظيمه. والأسلوب الذي واجه به تروتسكي الوضع الجديد يزيح النقاب عن ثبات موقفه السياسي. فقد اقترح بكل بساطة تطبيق الطرائق العسكرية على المشكلات الاقتصادية. داعيا إلى تشديد شيوعية الحري وفرض العمل القسري . ولم يكن هذا الموقف المثير للدهشة نشازا أو ضلالا عابرا في سجل حياته. بل كانت جذوره النظرية والعملية تمتد عميقا في ماضيه . فقد كان على سابق استعداد، بحكم وظيفته كمفوض شعب لشؤون الحرب. لان ينظر إلى السياسة الاقتصادية وكأنها عملية تعبئة عسكرية بحتة. وهذا النزوع الفطري إلى الحلول القسرية يعكس أيضا ، بلا أدنى ريب ، عجزه عن فهم الدور النوعي للحرب وما يترتب على هذا العجز من ميل إلى البحث عن الحلول السياسية على مستوى الدولة فقط. و قد كان شعاره الصريح ، علاوة على ذلك . إذن مناقشة 1921 حول النقابات . "تدويل النقابات . كما كان تروتسكي من الدعاة إلى بيروقراطية كفؤة و دائمة و متمتعة بامتيازات مادية . ولهذا لقبه ستالين ب"رئيس جوقة البيروقراطيين".

والانكى من ذلك ان تروتسكي لا يبرر العمل القسري كضرورة مؤسفة تفرضها الظروف السياسية وحالة الطوارئ . بل يحاول ان يضفي عليه صبغة

شرعية من وجهة نظر عامة شاملة. محتجا بان إلزامية العمل موجودة في مجتمعات كافة وان اختلف أشكالها وهذا الدفاع عن الإكراه والقسر يقترن بتقديس صوفي لتفاني في سبيل المجتمع: فهو يلزم كتائب العمل بالكدح على أنغام أناشيد الاشتراكية: "أبدلوا طاقة لا تكل في عملكم وكأنكم في استعراض أو في ساحة قتال. من يفر من العمل لا يقل خسة ودناءة عن من يفر من الجبهة. وللاثنين صارم العقاب! ابدأوا وانهاؤا عملكم على أنغام الأناشيد والأغاني الاشتراكية، ما أمكنكم ذلك . فعملكم ليس عبودية وإنما خدمة نبيلة للوطن الاشتراكي" (21).

هذا المزيج المتناقض لا تقوم له وحدة في خاتمة المطاف إلا عن طريق النزعة الإرادية التي تكمن وراء تصور العسكري والصوفي عن الاقتصاد. ولقد نجح تروتسكي في بداية الأمر في كسب تأييد لنبيين لمشاريعه في تجيش العمل . ولكن لنبيين، بعد المناقشة الكبرى حول النقابات في عام 1921 وحرب بولونيا. رفض بحزم وقوة اقتراح تروتسكي الداعي إلى تطهير النقابات بصورة جماعية من ممثليها المنتخبين . وقد ادانت لجنة الحزب المركزية انذاك علنا وجهارا أشكال العمل "العسكرية" والبيروقراطية . هكذا رفض البلاشفة اقتراحات تروتسكي وسط موجة من السخط العام عليه بوصفه واضع إيديولوجيا شيوعية الحرب . وخلاصة القول ان المناقشة حول الاقتصاد قد كشفت المسافة الفاصلة بين التصور اللينيني عن حزب ذي انضباطية رفيعة وبين دعوة تروتسكي إلى دولة عسكرية التنظيم .

1929-1921

رجل المعارضة

ان نقطة الأوج في حياة تروتسكي تقع بلا أدنى ريب عند الأعوام العشرينات : أعوام الخلافات الداخلية الحزبية الكبيرة. ولقد كانت غنية بالأحداث الحاسمة بالنسبة إلى التاريخ العالمي في العقود التالية. فما دور تروتسكي في أحداث العشرينات الدرامية؟

ينبغي أولا ان نميز بين الصراع على قيادة الحزب البلشفي وبين المسائل السياسية التي أثارته. فقد كانت المنازعات الداخلية تدور في غالب الأحيان حول ممارسة السلطة من قبل هذه أو تلك من المجموعات المتنافسة و المنقسمة إيديولوجيا. ولسوف نرى ان من أهدح أخطاء تروتسكي السياسية و النظرية تأويله الإيديولوجي المشتط لوضع الحزب الداخلي. من الأهمية بمكان إذن ان

نحل هذه الفترة على صعيدين : صعيد الصراع السياسي والتكتيكي و صعيد النقاش الإيديولوجي والاستراتيجي.

## المعركة السياسية التكتيكية

وجد تروتسكي نفسه ابتداء من 1921 معزولا في قمة الحزب البلشفي. ومن المهم ان ننوه بان غالبية الهجمات التي شنها عليه الحرس القديم (22). برمته تقريبا كانت ترمي إلى الحيلولة بينه وبين خلافة لينين. وهذا ما يفسر بكل تأكيد إجماع سائر أعضاء الحزب السياسي-زینوفيف ، كامينيف، ستالين، كالينين ، طومسكي – على معارضته حتى أثناء حياة لينين. فلقد بدا تروتسكي وكأنه ابرز الشخصيات في القيادة الثورية بعد لينين. إلا انه لم يكن عضوا تاريخيا في الحزب الذي كان ينظر إليه ريبة بوجه الإجمال. كما ألفت مواهبه العسكرية والدور الذي لعبه في المناقشة بصدد النقابات ظلا من "البونابرتية" على خشبة المسرح السياسي. ولينين نفسه لم يخصه بثقة اكبر من عادية. ولقد أتاح هذا الوضع لستالين في 1923. أي في السنة الأخيرة من حياة لينين. ان يسيطر على جهاز الحزب. ومن ثم على السلطة السياسية برمتها.

من الواضح ان تروتسكي لم يتبين ما كان يحاك. فقد حسب ان زینوفيف وكامينيف أهم شأنا من ستالين. ولم يدرك أهمية الدور الجديد لسكرتير الحزب. وقصر النظر الذي لا يصدق هذا يتناقض مع وعي لينين الحاد لمجرى الأحداث حتى أثناء مرضه. ففي كانون الأول 1922 سجل لينين ملاحظاته حول مسألة القوميات وفضح بعنف لم يسبق له مثيل مسؤولية ستالين وذر جنسكي في قمع جيورجيا. ثم أرسل تلك الملاحظات إلى تروتسكي مع تعليمات صريحة بالحصول على قرار حاسم من اللجنة المركزية. بيد ان تروتسكي لم يحرك ساكنا لقناعته بان لينين يباليغ في تقدير الموقف. وبعد ذلك بشهر واحد كتب لينين "وصيته المشهورة التي يتبين منها بوضوح إدراكه لمعنى صعود ستالين وتوقعه حدوث قطيعة بين عضوي اللجنة المركزية الأكثر موهبة". ستالين وتروتسكي. ولقد كان تروتسكي في حينه غافلا عن ذلك. وهو لم يحرك ساكنا أيضا لنشر الوصية حين توفي لينين بعد سنة من الزمن. ودوافع هذا المسلك ليست بواضحة. ومهما يكن من أمر. فان تلك الوصية لا تطري أيا من قادة البلاشفة. فقد خصت ستالين بنقد لاذع وعاملت تروتسكي بقليل من المجاملة ("طرقه الإدارية"). شأنه في ذلك شان بوخارين

("لا يفهم الجدل"). وهكذا لم يتوفر لدى مختلف أعضاء المكتب السياسي أي داع لنشر هذه الوثيقة مع كل ما تحتويه من أحكام تنبؤية بالكوارث التي على وشك الوقوع.

بعد وفاة لينين وجد تروتسكي نفسه من جديد معزولاً في المكتب السياسي. وراح يرتكب الخطأ تلو الآخر. فمن 1923 إلى 1925 ركز هجومه على زينوفيف وكامينيف. وبالبحاحه على دورهما في عام 1917 (23) ساعد ستالين على عزلهما فيما بعد. ثم خطر له ان يرى في بوخارين عدوه الألد وصب عليه كل ما يتمتع به من طاقة قتالية. وحتى في عام 1927 كان ما يزال يفكر بالتحالف مع ستالين ضد بوخارين. غير مدرك البتة ان ستالين عاقد العزم على إبعاده من الحزب وان الوسيلة الوحيدة لإحباط هذا المشروع هي تشكيل كتلة من اليسار ومن اليمين ضد الوسط. وهذا ما أدركه بوخارين في عام 1927 وفتح به كامينيف: "ان ما فصلنا عن ستالين لأقوى مما يفرق بيننا" (24). والواقع ان ستالين كان قد سيطر على التنظيم الحزبي منذ عام 1923. وبذلك غدت غالبية الاختلافات الحزبية الداخلية مجرد وهم. وكانت الفرصة لوضع ستالين عند حده التحالف السياسي بين سائر البلاشفة القدامى ضده. ولم يدرك زينوفيف و كامينيف ذلك إلا عد فوات الأوان. أما تروتسكي فلم يتوصل قط إلى إدراك الموقف على حقيقته بسبب الطابع النظري المحض لماركسيته. فلقد أعماه إلى حد يدعو للرتاء سوء تقديره لأهمية السلطة المستقلة للمؤسسات السياسية وميله إلى الخلط بينها وبين القاعدة الجماهيرية التي يفترض فيها ان تكون الدعامة الاجتماعية لتلك المؤسسات. وكان مصراً، طوال تلك الخلافات الحزبية الداخلية. على ان يرى في المواقف السياسية للاتجاهات المتصارعة تظاهرات منظورة بالعين المجردة للتطورات السوسولوجية الخفية داخل المجتمع السوفياتي. هكذا أضحت مفاهيم اليمين والوسط واليسار في كتاباته مجرد مقولات مثالية منفصلة عن السياسة. أي عن المؤسسات و عن حلبة السلطة على حد سواء. وبالرغم من تحذيرات لينين من تصاعد أهمية ستالين ومن السلطة التنظيمية التي كان يقبض على زمامها بصورة تدعو إلى القلق. استمر تروتسكي في اعتبار كامينيف و زينوفيف مصدر الخطر الأكبر عليه داخل الحزب بحجة كونهما المنظرين الإيديولوجيين ل"الثالوث" الحاكم وبحجة إتقانها لغة الأفكار وبين القوى الاجتماعية. وهذا الافتقار إلى نظرية وسيطة على مستوى السياسة. سيقودان تروتسكي إلى اقتراف أخطاء عملية ماحقة في مسيرة كفاحه.

ومن الأمثلة الصارخة على ذلك نشره في عام 1923 سلسلة مقالات تحدد "الخط الجديد". فهو يؤكد فيها بالحرف الواحد: "ان الحاجات المختلفة للطبقة العاملة وللفاعلين و لجهاز الدولة و أعضائها تؤثر على حزبنا الذي هو الوسيط الذي تسعى عن طريقه إلى التعبير عن نفسها سياسيا. والمصاعب والتناقضات الخاصة بعصرنا والاختلافات العارضة بين مختلف فئات البروليتاريا بمجملها وبين الفلاحين تؤثر على الحزب بواسطة جهاز الدولة و الشبيبة الطلابية. وحتى الاختلافات الآنية في وجهات النظر. وحتى الفروق البسيطة في الآراء قد تكون تعبيراً عن الضغط الخفي الذي تمارسه مصالح اجتماعية متميزة"(25).

هنا يتضح الوجه الآخر ل"النزعة الاستبدالية": الإيمان بإمكانية التطابق في الهوية بين الأحزاب السياسية والطبقات الاجتماعية. ذلك الإيمان الذي يضرب صفحا عن واقع العلاقات بين الأحزاب والطبقات لا يمكن البتة إرجاعها إلى أي من هذين القطبين. و بمعنى من المعاني فان الحزب هو على الدوام "بديل" عن طبقة لأنه لا يستطيع ان يتطابق معها- ولو تطابق معها لانفتت الحاجة إليه- ولأنه يعمل في الوقت نفسه باسمها. ولكن الحزب . بمعنى آخر. ليس بحال من الأحوال "بديلا" حقيقيا. لأنه لا يملك ان ينفي الوجود الموضوعي للبروليتاريا و العلاقة العامة بين القوى الطبقيه التي تستمر في الوجود حتى عندما تكون البروليتاريا مشتتة أو ضعيفة-كما كانت الحال غداة الحرب الأهلية- أو حتى عندما يعمل الحزب ضد المصالح المباشرة للطبقة العاملة كما حدث في مرحلة السياسة الاقتصادية الجديدة. ان العلاقات بين الحزب و الطبقة تشتمل على سلسلة كاملة مركبة من الاحتمالات التي لا يمكن إرجاعها إلى مخطط بسيط ثنائي القطب. نلاحظ إذن ان مفهوم "الاستبدال" لم يساعد تروتسكي البتة في إيجاد أفضل السبل لمتابعة المعركة داخل الحزب. وهذا في زمن تغلبت فيه أهمية الأجهزة السياسية -أجهزة الحزب- بصورة ملموسة لمس اليد على أهمية القوى الاجتماعية ( من دون ان تلغيها إلغاء باتا). وبالرغم من نشاطه في الجدل والحجاج. كان آخر من فهم ما يجري . والأدهى من ذلك انه ارتكب أخطاء في التحليل السياسي في كل مرة أراد فيها تقييم العلاقات بين الحزب والطبقة على ضوء مفهوم "تطابق الهوية". وكتابة "الخط الجديد" مثال ساطع على ذلك. فعقيدته "السوسيولوجية" النزعة على نحو ما ذكرنا أنفا اقترنت بدعوة ملحة إلى "بلترة" أجهزة الحزب والى تجديد حيويته عن طريق فتح أبوابه للشباب. هذه الثقة في المقولات السوسيولوجية ستتمخض

عن نتيجة تبعث على الاستغراب: فستالين هو الذي سينفذ السياسة التي دعا إليها تروتسكي في تجديد الحزب وتحريره من البيروقراطية . ولكن ليصل إلى نتائج معاكسة تماما. فعمليات التشبيب الواسعة النطاق التي تمت في عام 1924 باسم " فوج لينين " وطدت نهائيا دعائم ستالين على الحزب إذ أغرقت الملاكات البلشفية القديمة في بحر العدد الغفير من العمال المفكرين إلى التكوين السياسي والقابلين للتأثير والتوجيه. وليس في مستطاع احد ان ينكر ان " بلترة" الحزب قد قفرت بذلك إلى الأمام . ولكن الاعتقاد بإمكانية ترجمة القوى الاجتماعية على الفور إلى قوى سياسية منظمة خطأ لا يمكن الوقوع في شراكه في إطار النظرية اللينينية عن الحزب. إلا ان تروتسكي ظل سادرا في هذا الخطأ طوال تلك السنين الحاسمة.

وفي عام 1925. عندما انقسمت "الترويك" (26) على نفسها . تنحى تروتسكي جانبا لأنه كان ينظر إلى الصراع إلى أي مبدأ أساسي. وفي الوقت الذي راح فيه ستالين و زينوفيف يتبادلان الاتهامات من خلال منظمتي لينينغراد وموسكو. كتب تروتسكي إلى كامينيف ساخرا: "ما القاعدة الاجتماعية لمنظمتين عماليتين تكيلان الشتائم إحداهما للأخرى؟". ولقد كان هذا الموقف الاستتكافي بمثابة انتحار سياسي. ويمكننا القول ان تروتسكي . بخلاف زينوفيف على سبيل المثال . لم يقاتل قط قتالا حقيقيا على الصعيد السياسي. فقد تأرجح مسلكه . إبان الصراعات الداخلية . بين روح عدوانية شرسة وبين سلبية تامة (خلاص روسيا لن يكون إلا على يد ثورات من الخارج)(27). ولقد أحسن ستالين استغلال هذا المسلك المفنقر إلى التلاحم السياسي وافتقاره إلى الحس التكتيكي، فنزوتسكي -الذي لم يشكل خطرا سياسيا أو تنظيميا وان أرفق تصرفاته بمظاهر الآلهة والعظمة- قد قدم لستالين ولجهازه ما كان بأمس الحاجة إليه لتحويل الحزب إلى آلة مستبدة بيروقراطية. ويكاد يكون في مقدورنا ان نؤكد انه لو لم يكن تروتسكي موجودا لكان على ستالين اختراعه أو بمعنى من المعاني فان تروتسكي اختراع ستالين.

## الصراع الإيديولوجي والاستراتيجي

لننتقل الآن إلى المعركة الإيديولوجية الكبرى بصدد الاختيارات الإستراتيجية للثورة. ولنر كيف عكست نفس المسلمات النظرية لدى تروتسكي. ولسوف نتبين ان هناك توازيا وثيقا وظاهرا للعيان بين مواقفه على

الصعيد السياسي والتكتيكي ومواقفه على الصعيد الإيديولوجي والإستراتيجي. وذلك في جملة المناظرات والخصومات الرئيسية التي عاشها ذلك العصر.

من "الاشتراكية من بلد واحد"  
إلى "الثورة الدائمة"

سيطر الجدل حول هذه المسألة على المناقشات النظرية في العشرينات. ولا ريب في ان الموقف الذي حدده لينين كان صحيحا في زمن صلح "بريست - ليتوفسك". فقد كان يقول أن على البلاشفة ان يكونوا دائما مستعدين على الدوام لعدد من الاحتمالات وألا يراهنوا على مسلمات مزعومة. فمن السخف محاولة التنبؤ بحدوث أو بعدم حدوث ثورات في الغرب بشكل عام . ومن غير المعقول، بوجه خاص، بناء الإستراتيجية البلشفية كلها على فرضية ثورة في أوروبا. ولكن ليس هذا معناه استبعاد حدوث مثل هذه الثورة.

بيد ان هذا الموقف الجدلي قد استبدل. بعد وفاة لينين . باتجاهين متعارضين داخل الحزب. فستالين من جهة أولى قد استبعد فعلا إمكانية ثورات أممية وجعل من بناء الاشتراكية في بلد واحد المهمة الوحيدة – الممكنة والضرورية معا – للحزب البلشفي . أما تروتسكي فقد كان يرى . بالمقابل. أن ثورة اكتوبر مقضي عليها ما لم تهب ثورات أممية لنجدها. بل انه تنبأ بان الثورات وشيكة الوقوع. وتشويه موقف لنين في كلتا الحالتين ظاهر للعيان.

قد يعترض معترض فيقول ان ستالين. باستبعاده قيام ثورات أوروبية. قد أسهم فعلا في هزيمة هذه الثورات- وقد وجهت هذه التهمة مرارا لسياسته تجاه ألمانيا وإسبانيا. والواقع ان هنالك شيئا من "النبوءة التي تحقق نفسها" في فكرة الاشتراكية في بلد واحد". ونحن إذ نقر بهذا- ولن نضيف شيئا آخر بصدد تشويه ستالين للإستراتيجية التي حددها لينين – فإننا لا نستطيع ان ننكر أن نظرة ستالين كانت متفوقة على نظرة تروتسكي. وهذه النظرة هي التي شكلت السياق التاريخي والعملي للصراع على السلطة كما رويناها آنفا. ولو أن مجرى الأحداث كذب خط ستالين الاستراتيجي لكان مركزه داخل الجهاز الحزبي غير ذي وزن. هنا تكمن قوة ستالين الأساسية التي لا سبيل إلى زعزعتها في مجرى الأعوام العشرينات.

تصورات تروتسكي

ماذا كان تصور تروتسكي الاستراتيجي؟ ماذا كان يقصد "بالثورة الدائمة"؟ لقد دمج في كراسة نشرها في عام 1928 بهذا العنوان ثلاث أفكار مختلفة في صيغة واحدة وهي: الاتصال المستمر بين المرحلتين الديمقراطية والاشتراكية من الثورة. والتحول المتصل للثورة الاشتراكية بعد انتصارها. والارتباط الحتمي بين مصير الثورة في كل قطر وبين مصير الثورة العالمية.

إن النقطة الأولى تنزع إلى تعميم تصوره على ثورة أكتوبر. ذلك التصور المنزل منزلة القانون المطلق في البلدان المستعمرة قاطبة. أما النقطة الثانية فهي بديهية إلى حد الابتذال ولا تستأهل نقاشا. إذ لا يستطيع احد ان ينكر ان الدولة السوفياتية ستعرض لتحويلات متصلة. والنقطة الثالثة هي وحدها الجديرة بالنقاش : فهي تشارط بقاء الثورة السوفياتية بنجاح الثورات الأجنبية . ومحاكاة تروتسكي بصدد هذه النقطة التي تشكل حجر الزاوية في موقفه السياسي برمته ضعيفة إلى حد مذهل . فهو لا يعارض إمكانية اشتراكية في بلد واحد إلا بحجتين اثنتين هما في منتهى الإبهام. فهو يرى من جهة أولى أن دخول روسيا إلى حلبة الاقتصاد العالمي سيضعها تحت رحمة الحصار الاقتصادي والتخريب الرأسمالي. وهو يأتي بذكر " القيود الشديدة الوطأة للسوق العالمية" دون تفسير واضح لتأثيرها على الدولة السوفياتية الفتية (28).

ويبدو تروتسكي، من الجهة الثانية ، وكأنه يعتقد بان الاتحاد السوفياتي لا يمكن الدفاع عنه عسكريا وبأنه سينهار أمام غزو خارجي ما لم تقم ثورات أوروبية لدعمه. وظاهر للعيان انه لم يكن لهاتين الحجتين ما يبررها آنذاك وأن الواقع قد كذبهما. فالتجارة الخارجية السوفياتية ستكون محركا للنمو الاقتصادي لا أداة تراجع وتسليم . والبورجوازية العالمية لن تشن على الاتحاد السوفياتي هجوما بجيوش ما فوق قومية تسيورها الرأسمالية المتحدة. بل كانت التناقضات داخل المعسكر الرأسمالي قوية لدرجة أخرت الهجوم الإمبريالي على الإتحاد السوفياتي طوال عشرين سنة. وعندما قامت ألمانيا في آخر المطاف بغزو روسيا. كانت الدولة السوفياتية - المصنعة والمسلحة في عهد ستالين. وبمساعدة حلفائها البورجوازيين - قد غدت قادرة على رد المعتدين على أعقابهم. (29)

هكذا يتضح ان أطروحة تروتسكي القائلة بان الاشتراكية في بلد واحد مقضي عليها بالدمار المحتوم أطروحة لا أساس لها من الصحة.

الخطأ النظري

ما يهمننا هاهنا هو تحديد الخطأ النظري الأساسي الكامن وراء مفهوم الثورة الدائمة . فترو تسكي ينطلق . هاهنا أيضا . من تحديد خططي تجريدي للقوى الاجتماعية (المؤقمة أصلا . في قطر من الأقطار –البورجوازية ضد الفلاحين الفقراء المتحالفين مع البروليتاريا – ليعمم هذه المعادلة على العالم بأسره ويعطيها شكل مواجهة بين "البورجوازية الأممية" و "البروليتاريا الأممية" . وصيغة "الثورة الدائمة" المبسطة هي التي تجعل تلك الشعوذة ممكنة . وتكون النتيجة غض النظر عن المؤسسة السياسية للأمة . أي عن البنية الشكلية للعلاقات الأممية وعن النظام المنبثق عن هذه العلاقات . وهكذا تتبخر المؤسسة السياسية (الدولة) -التي هي بورجوازية ناهيك عن سائر مساوئها الأخرى -كما يتبخر الندى تحت أشعة الشمس إزاء المواجهة بين الطبقات . تلك المواجهة التي تملئها قوانين سوسيولوجي صارمة . وهذا التمتع عن الاعتراف بالاستقلال الذاتي للمستوى السياسي . الذي رأينا انه قد أفضى إلى تصور مثالي لصراع الطبقات بمعزل عن كل تنظيم حزبي . يؤدي الآن إلى تصور بنية اجتماعية كونية تخلق فوق التمهصلات العينية لنظام العلاقات الأممية . وبذلك يكون المستوى الوسيط الذي يمثله الحزب أو الأمة قد اسقط من الحساب بكل بساطة.

ان هذه المثالية لا تمت بصلة إلى الماركسية . وليس لمفهوم "الثورة الدائمة" مضمون حقيقي . فهو لا يعدو ان يكون أكثر من مفهوم إيديولوجي كان الهدف من إنشائه إضفاء ظاهر من وحدة على مشكلات متباينة بطبيعتها من دون ان يكون قادرا على تفسيرها . وما انتظار ثورات أوروبية وشيكة إلا نتيجة إرادية الطابع لذلك المذهب التوحيدي . لقد أفلتت الفروق الجوهرية بين البنية الاجتماعية لكل أوروبا الغربية وروسيا من إدراك تروتسكي الذي كان يرى ان الرأسمالية كل واحد لايقبل انقسامات تماما كما كان توقيت الثورة على جانبي نهر فستولا واحدا(30). هذه الأممية الشكلية (التي تذكرنا بأمية ر . لوكسمبورغ ) تنكر في الواقع الفروق الأممية الفعلية بين الأقطار الأوروبية(31). وبالمقابل فان تشكك ستالين الغريزي تجاه بروليتاريا أوروبا الغربية وثقته بالانعزالية الروسية بيرهنان - بالرغم من خستهما وافتقارهما إلى الحس النقدي – على وعي اصفي لتفاوت الأوضاع في أوروبا في العشرينات . ولقد أيدت الأحداث هذه الثقة بقوة دوام الأمم بوصفها بنى اجتماعية متميزة(32). ففي أوروبا

معاهدة فرساي لم تكن التقاويم السياسية واحدة في باريس وروما ولندن وموسكو.

## التجميع والتصنيع

كانت المشكلة الثانية المسيطرة - بالترابط مع الأولى- على المناقشات الإيديولوجية في العشرينات هي مشكلة السياسة الاقتصادية في روسيا نفسها. والسياسة الزراعية على وجه الدقة في المقام الأول. كان لينين قد رسم خطأ استراتيجيا عاما للقطاع الريفي . وكان يرى ان التجميع سياسة إلزامية على المدى الطويل . إلا أنها لا تكون ذات معنى ما لم يصاحبها إنتاج آلات زراعية حديثة و متطورة وثورة ثقافية في أوساط الفلاحين. وكان يعتقد ان التنافس بين القطاع المجمع والقطاع الخاص ضروري لا لتجنب الاصطدام بالطبقة الفلاحية فحسب. بل أيضا لضمان فاعلية الزراعة الجماعية . و غني عن البيان ان هذه الخطط التجريبية كانت تمثل النقيض المطلق للتجميع الستاليني الذي حدد مواقيت مسبقة لانجاز التجميع في أقاليم بأسرها. ونظم "التباري الاشتراكي" بين منظمات الحزب في مختلف المناطق . حاثا إياها على الدخول في سباق مع الساعة لتطبيق الجماعية . وهنا أيضا أتاح موت لينين الفرصة لانقسام موقفه الجدلي إلى نظريتين متعارضتين . فقد دعا بوخارين منة جهة أولى إلى سياسة يمينية متطرفة تركز اغتناء فلاحي الملكية الخاصة على حساب المدن: " سوف نتقدم بخطى وثيدة وثيدة ساحبين خلفنا عربتنا الفلاحية الضخمة " . ونادى بريوبراجنسكي من الجهة الثانية باستثمار الفلاحين(اقتصاديا) لتوفير فائض برسم التصنيع السريع.

لقد حجت هاتان الصيغتان . المتناقضتان حاد التناقض. عن الأنظار المظاهر المتكاملة بالضرورة التي كانت صيغة لينين ترمي إلى الحفاظ عليها. فكلما كانت الطبقة الفلاحية أفقر تضاءلت قدرتها على تقديم فائض علاوة على استهلاكها الذاتي . وتقلصت إمكانية استغلالها بهدف التصنيع . ومحاولة بوخارين كسب مودة الطبقة الفلاحية وطريقة بريوبراجنسكي في اصطناع تناقض بينها وبين البروليتاريا تحرفان كلتاهما سياسة لينين وتلويان عنقها . اقصد سياسته في تطبيق الجماعية بدون سحق الفلاحين وبدون اعلان الحرب عليهم . وقد سلم الجانبان أمرهما لماركسية مبتذلة كانت ذائعة على نطاق واسع في أوساط الحرس البلشفي القديم . فقد زعم بريوبراجنسكي ان التراكم

الاشتراكي البدائي قانون حديدي للمجتمع السوفياتي . وهاجم بوخارين على نزعته اللوكاشية حين ادعى ان سياسة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية فخضع للضرورات السياسية . بالمقابل كتب بوخارين في الحقبة نفسها في كتابه "مدخل إلى المادية التاريخية " ان الماركسية أشبه ما تكون بعلم من العلوم الطبيعية وأنها قادرة على التنبؤ بالأحداث القادمة بدقة العلوم الفيزيائية. وطاهرة هي للعيان المسافة التي تفصل أمثال هذه التصورات والصيغ عن ماركسية لينين " كان لينين القائد البلشفي الوحيد الذي درس من وجهة نظر الرأسمال. هيغل وفيورباخ وماركس الشاب إبان إقامته في سويسرا زمن الحرب".

ولا مرأ . بغض النظر عن انقسام اللينينية ذاك. في ان احد الموقفين متفوق على الآخر – تماما كما رأينا حول الاشتراكية في بلد واحد . ومن هذا المنظور يمكن القول بان بريوبراجنسكي وتروتسكي كانا على صواب عندما ألحا على ضرورة تقليص الفروق الاجتماعية داخل البلاد ووضع فائض الأرياف تحت إشراف الحزب ورقابته . ولقد برهنا على إدراك أعمق وأبكر من سائر أعضاء الحزب لضرورة التصنيع السريع . وكانت هذه هي ميزتهما التاريخية الكبرى . فقد دعا تروتسكي إلى تصنيع مخطط والى تراكم اشتراكي بدائي في المؤتمر الثاني عشر للحزب . أي في عام 1923. وجرأة مثل هذا الموقف لا تزدد إلا بروزا بالمقارنة مع موقف بوخارين الذي حاول ان يتكيف مع ميول الاقتصاد الأكثر رجعية . ومع تردد ستالين ومراوغاته . ولسوف يؤيد تاريخ الاتحاد السوفياتي فيما بعد الصحة النسبية للسياسة التي كان تروتسكي يحمل لواءها . فما العلاقة إذن بين مآثره في المناقشة الاقتصادية وبين أخطائه في المناظرة بصدد الاشتراكية في بلد واحد؟

يبدو ان الجواب الممكن هو ان مسألة الاشتراكية في بلد واحد كانت تتعلق بالارتباطات السياسية الأممية للثورة . في حين كانت المناقشة الاقتصادية تدور حول الاختيارات الإدارية المفتوحة أمام الدولة السوفياتية. وهنا اظهر تروتسكي مواهبه كإداري . تلك المواهب التي أشاد بها لينين. كما اظهر تحسسه المرهف بمشكلات الدولة على نحو ما لاحظنا آنفا. ونفاذ بصيرته في المشكلات الاقتصادية يتمشى مع طبيعة ماركسيته . فقد كان واعيا عميق الوعي لطبيعة الدور الاقتصادي للدولة السوفياتية في الوقت الذي كان فيه اهتمام سائر البلاشفة منصبا بوجه خاص على المشكلات اليومية للسياسة الاقتصادية الجديدة . بيد ان الإستراتيجية الاقتصادية للاتحاد السوفياتي كانت تتطلب أكثر من محض قرارات إدارية تملئها الدولة السوفياتية . وكان تنفيذها يشترط وجود خط سياسي

صحيح لدى الحزب تجاه مختلف الطبقات الاجتماعية — وهذا ما اسماه ماو فيما بعد "بمعالجة التناقضات داخل الشعب".

هنا على وجه التحديد كان تروتسكي يفتقر إلى نظرة متلاحمة متكاملة. ولقد كان هذا النقص شبه محتوم عليه بالنظر إلى عدم تفهمه لمشكلات الحزب. فكانت النتيجة الأولى ان تولى ستالين تطبيق سياسته ماسخا إياها . فبعد ان شل اليسار وتروتسكي . انقلب على اليمين ليضع سياسة المعارضة اليسارية في الاقتصاد موضع تطبيق. ولكن من دواعي الأسف ان هذا التطبيق اتخذ شكلا من العنف والفظاظة نجمت عنه أزمة زراعية دائمة على الرغم من النجاح الكبير الذي أحرزته الخطط الخماسية . ولم يكن تروتسكي قد فكر قط بصورة عينية بمشكلة البعد السياسي للخط الاقتصادي الذي كان يدعو إليه. ولقد حسم ستالين المشكلة بحل سياسي عيني : كارثة التجميع القسري. وبالطبع تراجع تروتسكي مذعورا ومشمئزا إزاء حملات التجميع. واتهم ستالين بأنه طبق برنامجا السياسي تطبيقا يتناقض كل التناقض مع تصوراته الذاتية . ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع ان ننكر وجود تقارب بين الخطئين. وهذا ليس بهذه المناسبة وحدها . فتنسيب "فوج لينين" كما سبق ان ذكرنا يقدم مثلا آخر على محمل الجد فيما بعد. كما يبدو. تحذيرات تروتسكي المكررة من خطر ردة بورجوازية مستندة إلى الطبقة الفلاحية أو إلى انقلاب عسكري بيروقراطي . وقد تلافى هذا الخطر على الخطر على طريقته . أي بحملات الاغتيال . ويبدو ان صلة ستالين بتروتسكي كانت آنذاك أشبه ما يكون بصلة سمر دياكوف بايفان كارامازوف. وهذا ليس بمعنى ان الأول قد شوه أفكار الثاني الأصلية حين وضعها موضع تطبيق فحسب . بل أيضا لان تلك الأفكار نفسها كانت تنطوي على عيوب محددة تفتح الباب على مصراعيه أمام تلك الانحرافات.

وقد رأينا ماهية تلك العيوب: والواقع ان اللينينية قد ماتت بموت لينين . ووجد الحزب البلشفي نفسه يتأرجح أمام نقيضين متطرفين بحكم منطوق الأحداث الذي لم يتوفر لأي قائد و لأي مجموعة من البلاشفة القدرة النظرية على السيطرة عليه . فبعد انحلال إستراتيجية لينين الجدلية وجدت سياسات اليسار و اليمين نفسها مكرهة على التصادم باستمرار . وكذلك على التلاقي . بحكم ضرورات التاريخ . وهكذا وضعت الاشتراكية في بلد واحد موضع تطبيق . ولكن على أساس البرنامج الاقتصادي للمعارضة اليسارية. ولكن هذا التطبيق كان خليطا من سياسات اليسار و اليمين . ولم يكن نتيجة وحدة جدلية بينها في إطار إستراتيجية محددة. ومن هنا فانه لم يفض إلا إلى النزعة الذرائعية الستالينية

الفضة وتقلباتها الباهظة الثمن التي لا يحصى لها عد على صعيد السياسة الداخلية والخارجية . وتاريخ الكومنترن حافل بهذا النوع من الانعطافات المبالغية العنيفة التي تتضاف فيها الأخطاء الجديدة إلى القديمة بدلا من ان تصححها . ولقد اجتاز الحزب تلك السنوات وليس بين يديه من سلاح غير ذرائعية ستالين البدائية وقدرته على التكيف وتغيير الاتجاه كلما تبدلت الظروف . ولئن كانت هذه الذرائعية قد انتصرت ، فان هذا الانتصار لم يقدم إلا الدليل على مدى انحطاط الماركسية البلشفية بعد غياب لينين.

ان النتائج التاريخية المأساوية لهذا الانحطاط غنية عن البيان . فمع قيام الثورة الروسية نجم وضع كان يمكن فيه لمجموعة صغيرة من القادة ان تمارس . فيما لو توفر لها الفهم النظري. تأثيرا حاسما على مجرى أحداث التاريخ العالمي وعلى مستقبل الإنسانية . والحال أننا الآن . وبعد مرور أربعين سنة. نستطيع ان نعاين جزئيا ثمار التطور الذي تحقق. ولكن نتائجه النهائية ما تزال في ضمير الغيب.

1940-1928

الأسطورة

بدأ تروتسكي حياته السياسية جنديا غير نظامي . وبرز خلال الثورة خطيبا شعبيا وقائدا استراتيجيا عسكريا . وفي العشرينات تزعم بلا نجاح المعارضة في روسيا . وبعد هزيمته ونفيه تحول إلى أسطورة . ففي المرحلة الأخيرة من حياته غدا رمزا حيا للمأساة الكبرى التي عاشها العقد السابق والتي امتزجت بمأساته الشخصية . فنشاطاته بمختلف أوجهها كان محكوما عليها باللافعالية العقيمة . وقد تزعم حركة سياسية وهمية . ووقف مشلول القوى . وفرضت عليه الإقامة الجبرية أنى تحرك . بينما كان ستالين يستأصل شأفة أنصاره . ولقد كان دوره الموضوعي الرئيسي . إبان تلك السنوات المحزنة . هو ان يقدم لروسيا ستالين القطب السالب الوهمي الذي كان ستالين بأمس الحاجة إليه . فقد استمر تروتسكي في إصدار جريدة المعارضة حتى بعد ان لم يعد من وجود لأي معارضة داخل الحزب البلشفي في أعقاب التطهيرات الستالينية . ولقد كان المتهم الرئيسي في محاكمات موسكو . هكذا وطد ستالين دعائم دكتاتوريته عن طريق تعبئة جهاز الحزب ضد "الخطر التروتسكي"

كانت أسطورة تروتسكي على درجة من القوة بحيث ان قشعريرة الخوف كانت تدب في قلوب برجوازيي أوروبا الغربية بمجرد ذكر اسمه. ففي آب 1929 قال كولوندر. سفير فرنسا. لهتلر ان تروتسكي قد يكون هو المنتصر الحقيقي في حال اندلاع حرب في أوروبا. وكان رد هتلر ان هذا سبب إضافي بين جملة أسباب أخرى يدعو فرنسا و انكلترا إلى عدم اعلان الحرب عليه( أي على هتلر).

هذه المرحلة من حياة تروتسكي يمكن ان تدرس على مستويين . فقد كان الفشل حليف محاولاته في تكوين منظمة سياسية : الأممية الرابعة. وقد قاده سوء معرفته بالبنى الاجتماعية والسياسية في الغرب كما دلت على ذلك المناقشة بصدد الثورة الدائمة – إلى الاعتقاد بان التجربة الروسية في العقد الأول من القرن العشرين قابلة لان تتكرر في أوروبا الغربية أو في الولايات المتحدة في الثلاثينات . وبديهي ان هذا الخطأ يعود إلى جهله بطبيعة الحزب الثوري. فلقد أدرك تروتسكي في شيخوخته ان خطأه الأكبر كان تهوينه من أهمية الحزب. تلك الأهمية التي لم تغب قط عن ناظري لينين . إلا انه لم يحفظ شيئاً من أمثلة لينين . فلقد قادته محاولاته لبناء حزب لينيني جديد . مرة أخرى . كما رأينا في ريعان شبابه. إلى صورة كاريكاتورية له. لا أكثر ولا أقل . فقد اكتفى بتقليد خارجي محض لأشكال التنظيم دونما فهم لطبيعتها الداخلية. وسقطت محاولاته لتشكيل تنظيم في شباك نزعة إرادية عقيمة . نتيجة لعدم تفهمه طبيعة المجتمعات التي حط رحاله فيها وعدم استيعابه الصلة الضرورية بين الحزب والمجتمع كما حددها لينين. ومن مهازل القدر المريرة انه وجد نفسه في أواخر حياته يعاشر نفس الفئات التي كان يبغضها ويزدرئها. من مثقفي الصالونات ذوي النوعية المناقضة تماماً لنوعية الثوريين اللينينيين. وبالفعل انحاز الكثيرون منهم إلى صفه و أضحوا الأنصار السياسيين لقضيته. ولاسيما في الولايات المتحدة(من امثال برنهام و شاخمان وآخرين) . وانه لما يحز في النفس ان يكون الأمر قد انتهى بتروتسكي إلى اعتبار من هم على شاكلة برنهام أناسا جديرين بالحوار و التعامل معهم. ومثل هذا اللقاء يقدم في حد ذاته الدليل على مدى ضياع تروتسكي وعدم وضوح الأهداف أمامه في إطار الوضع في الغرب الذي لم يألفه كثيراً.

بيد ان كتابات تروتسكي في المنفى – وهذا هو المستوى الثاني الذي نستطيع ان ندرس على ضوء المرحلة الأخيرة من حياته- هي أعمق وأعظم أهمية من تلك المغامرات و التقلبات التي كانت بلا غد. وصحيح ان هذه الكتابات لا تضيف شيئاً يذكر إلى تصورات النظرية الأنفة الذكر . ولكنها تؤكد مكانة تروتسكي

كمفكر ثوري كلاسيكي متورط في مازق تاريخي لا خلاص منه. ان ميزة كتاباته المتأخرة تكمن في تفهمه الغريزي - الذي قد يجانبه الصواب أحيانا- للقوة الاجتماعية المتمثلة بال جماهير. وكتابه " تاريخ الثورة الروسية". كما أجمع النقاد على ذلك. هو في المقام الأول دراسة رائعة لبيكولوجيا الجماهير. وفي الوقت نفسه. وكنقيض مكمّل . متحف من اللوحات الشخصية. ولا يحاول الكتاب ان يشرح دور الحزب البلشفي في ثورة اكتوبر. وإنما هو بالأحرى تاريخ لملمحة الجماهير التي قادها الحزب إلى النصر. ونزعة تروتسكي السوسيولوجية تنتج نظرة إلى الثورة ترفض بلا لبس الاعتراف بالاهمية الدائمة للعناصر السياسية و الاقتصادية. وهكذا تصبح **بسيكولوجيا الطبقة** - ذلك التركيب الأمثل لعنصري القوى الاجتماعية و الأفكار - العامل المتحكم بالثورة: "في مجتمع قهّب عليه رياح الثورة . تكون الطبقات في حالة صراع . إلا انه من الواضح تمام الوضوح ان التغيرات الطارئة . بين بداية الثورة ونهايتها. على الأسس الاقتصادية للمجتمع وعلى الخصائص الاجتماعية للطبقات . لا تكفي لتفسير مجرى الثورة التي يسعها في أمد وجيز ان تطيح بالمؤسسات العتيدة وان تخلق مؤسسات جديدة لتطيح بها مرة أخرى . ان دينامية الأحداث الثورية تتحدد مباشرة بالتغيرات المفاجئة ، الشديدة والعاطفية ، في **بسيكولوجيا الطبقات** التي اكتمل تكونها قبل الثورة بمدة (33).

أما مقالات تروتسكي عن الفاشية الألمانية فهي دراسة في علة أمراض البورجوازية الصغيرة المسحوقة وهذياناتها . ومما تجدر الإشارة إليه ان هذه المقالات ، بتنبؤاتها العظيمة ، هي الكتابات الماركسية الوحيدة التي توقعت في تلك السنين النتائج المأساوية للنازية وللسياسة الحمقاء التي انتهجها الكومنترن تجاهها في مرحلته الثالثة (34). كما كانت دراسة تروتسكي اللاحقة عن الإتحاد السوفياتي أكثر جدية مما يمكن أن يوحي به العنوان الديماغوجي الذي نشرت تحته (35). ولمرة واحدة على الأقل كانت النزعة السوسيولوجية التي لازمته طوال حياته ذات نفع له .

ان ميله التي التهوين من فعالية المؤسسات السياسية قد قاده قبل الثورة وبعدها إلى ارتكاب الخطأ تلو الخطأ في ميدان النضال السياسي الفعلي . ولكنه عندما حاول في نهاية المطاف التصدي لمشكلة طبيعة المجتمع السوفياتي تحت حكم ستالين . جنبه ميله ذلك الوقوع في فخ ما سمي (ففي الوقت الذي راح **kremlinologie** فيما بعد ب"علم الكرملين")

فيه الكثيرون من أتباعه يخترعون "طبقات حاكمة" جديدة ويتنبئون بـ"ردات رأسمالية" في الاتحاد السوفياتي . كان تروتسكي يؤكد على العكس في تحاليله للدولة السوفياتية ولجهاز الحزب ان هذا الأخير لا يشكل طبقة اجتماعية.

هذه هي ماركسية تروتسكي . ماركسية لها وحدتها المتلاحمة والمميزة . من أوائل شبابه إلى شيخوخته . ومن الواجب اليوم دراسة تروتسكي جنبا إلى جنب مع بليخانوف وكاوتسكي وروزا لوكسمبورغ وبوخارين وستالين . فتاريخ الماركسية لم يعد إلى اليوم بناؤه في الغرب . والحال ان إعادة البناء هذه هي وحدها التي تتيح لنا ان نسبر غور لينين. الماركسي العظيم الوحيد في ذلك العصر.  
الهوامش:

- 1- إ. دويتشر: "النبى مسلحا"، ص.45
- 2- "الإيسكرا"(الشرارة): أول صحيفة سرية ماركسية لعموم روسيا أسسها لينين في عام 1900 ولعبت دورا حاسما في تأسيس حزب ماركسي ثوري للطبقة العاملة. -المعرب-
- 3- خطأ من قبيل السهو. والصحيح أنه المؤتمر الثاني لا الثالث ، وهو المؤتمر الذي أقر برنامج الحزب وشهد الانقسام التاريخي بين البلاشفة و المناشفة بصدد المسألة التنظيمية. -المعرب-
- 4- "ما العمل؟": مؤلف لينين العظيم الذي وضع فيه أسس إنشاء تنظيم ثوري ماركسي للطبقة العاملة. - المعرب-
- 5- بافل اكسلرود: اشتراكي- ديموقراطي روسي. من زعماء المناشفة (1850- 1928). -المعرب-
- 6- "النبى مسلحا" ص90 و92.
- 7- "نتائج وتوقعات"، ص.195
- 8- "نتائج وتوقعات"، ص.229.
- 9- "نتائج وتوقعات" ،ص.246
- 10- هي الكتلة التي تشكلت في مؤتمر المصنفين في فيينا في آب 1912 ، وأرادت أن تكون وحدوية فما أقلحت إلا في أن تكون وسطية. -المعرب-
- 11- "النبى مسلحا"، ص.176.
- 12- الترجمة العربية لهذه المقالة منشورة في عدد أيلول 1969 من "دراسات عربية". - المعرب-
- 13- "الإنتلجنسيا والاشتراكية".
- 14- ان النظرية اللينينية عن الحزب الثوري لم تدرك كمال تطورها في "ما العمل؟". فهي لم تبلغ حد النضج وتحدد بصورة نهائية إلا بعد ثورة 1905 ، ومن خلال ممارسة بناء الحزب.
- 15- "النبى مسلحا"، ص.187
- 16- رواد الحركة الثورية الروسية قاموا بانقلاب فاشل في كانون الأول 1825. -المعرب-
- 17- "الكفاح من أجل السلطة". من الممكن بالمناسبة مقارنة موقف تروتسكي من الحزب إبان تلك السنوات بموقف روزا لوكسمبورغ. فقد وعت، قبل لينين بمدة لا بأس بها ، الروح التحريفية للحزب الألماني ، ولكنها امتنعت عن تفجير الحزب الاشتراكي-الديموقراطي ، وأخرت بذلك عملية بناء حزب ثوري حقيقي . وكانت النتيجة قاضية : هزيمة الانتفاضة السبارتاكية في عام 1917. وهكذا يكون

تروتسكي ولوكسمبورغ على حد سواء قد اعتمدا على اندفاع الجماهير الثوري وأهملا مشكلة تعبئتها في منظمة ثورية.

18- "الثورة الدائمة"، ص.49

19- دانتون: من زعماء الثورة الفرنسية. وخطيب مفوه [ كلمة غير واضحة في النص الاصيل]. (1759-1794).

وكارنو: عالم رياضيات فرنسي، أنشأ الجيوش الأربعة عشر للثورة الفرنسية ووضع جميع خطط الدفاع عن الجمهورية ولقب بمنظم النصر 1753-1823. -المعرب-

20- "النبي اعزل"، ص.32

21- "النبي مسلحا"، ص.295. وبالمناسبة لا تبدو لنا هذه الصورة بعيدة عن صورة اليسوعي. ولسوف يكتب تروتسكي فيما بعد يقول أن السبب الذي يحمل الأذعياء الجهلة البورجوازيين على إضمار كراهية مريرة لليسوعيين هو أن هؤلاء جنود الكنيسة بينما يكتفي معظم الكهنة بأن يكونوا حانوتيينها . وصحيح أننا لا نجد داعيا لمثل هذا التمييز ، ولكن تروتسكي أثر على ما يبدو اليسوعيين على سائر الكهنة . ومن البديهي أن المناضل الاشتراكي يشعر في المراحل الثورية بأنه أقرب إلى الجندي منه إلى الحانوتي. ولكن هل يمكن لهذا الوضع الطارئ أن يجعل الاشتراكي ينسى أن "أسلوبا" عسكريا معيناً هو ، ك"الأسلوب" التجاري ، نتاج المجتمع الطبقي.

22- يقصد البلاشفة القدامى. -المعرب-

23- في صيف 1917 عارض زينوفييف و كامينيف القيام بانتفاضة بلشفية وكادا يفصلان من الحزب . -المعرب-

24- "النبي أعزل"، ص.442

25- "الخط الجديد" ، ص.27

26- الترويك: عربة روسية تجرها جياذ ثلاثة . وقد كنى بها تروتسكي التحالف الثلاثي الذي قام بها سنالين و زينوفييف و كامينيف غداة وفاة لينين. -المعرب-

27- سيتكلم تروتسكي فيما بعد مرارا وتكرارا عن "التفاؤل الثوري" . والحال أن التفاؤل والتشاؤم محض مسالك انفعالية تمت بصلة قربي إلى التصور البورجوازي عن العالم لا إلى الماركسية . و"التفاؤل" لن يزداد عمقا إذا وصفته ب"الثورية" كما لن يزداد التشاؤم عمقا إذا ما وصف ب"البطولة".

28- في مقطع مثير للدهشة لا يحجم تروتسكي عن القول بأنه إذا كانت الاشتراكية ممكنة في روسيا فلن تكون الثورة العالمية ضرورية لأن اتساع رقعة روسيا يجعل نجاح بناء الاشتراكية فيها بمثابة انتصار أممي للبروليتاريا في بلدان العالم قاطبة. "ان بلدا متأخرا يتمكن ، بعد عدة خطط خماسية، من بناء مجتمع اشتراكي قوي بقواه الذاتية وحدها، سيكون قدوة تسدد ضربة مميتة إلى الرأسمالية العالمية وتخفف إلى الحد الأدنى ، بله إلى الصفر، تكاليف الثورة البروليتارية العالمية". ومعلوم أن خروتشيف ارتأى **مثلا** هذا الرأي في مستهل الستينات. واللجوء إلى مثل هذه الحجة يظهر مدى ضعف موقف تروتسكي في "الثورة الدائمة" . إذ لم تكن حاجة تروتسكي ضد الاشتراكية في بلد واحد منصبة على استحالة بناء اشتراكية حقيقية انطلاقا من مستوى شديد الانخفاض للقوى المنتجة وللتراكم الحضاري. بل كانت حجته أن الدولة السوفياتية لن تستطيع الصمود أمام هجوم خارجي . اقتصادي أو عسكري . والشاهد الذي أوردناه أعلاه يدل على أن تروتسكي يقبل بمعادلة تبسيطية بين الاشتراكية وبين التطور الاقتصادي السوفياتي . 29-

ارتأى تروتسكي على الدوام أنه ما دام التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية أعمق جذورا من التناقض بين البلدان البورجوازية نفسها. فإن هذه الأخيرة ستتحدا لا محالة لمهاجمة الإتحاد السوفياتي . وهذا مثال نموذجي عن الخلط بين التناقض المتحكم على المدى البعيد والتناقض الغالب في فترة تاريخية محددة.

30- الفستولا : نهر في بولونيا . -المعرب-

31- يلاحظ غرامشي بسداد رأي بصدد أممية تروتسكي : "من حقنا أن نتساءل عم إذا لم تكن نظرية الثورة الدائمة الشهيرة مجرد انعكاس سياسي لنظرية الحرب الحركية وفي التحليل الأخير مجرد انعكاس للشروط الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في قطر ما تزال فيه بنى الحياة القومية جنينية ورخوة وعاجزة

عن التحول إلى "خندق" أو "حصن" . وفي مثل هذه الحال يمكن القول بأن تروتسكي ، الغربي في ظاهره . كان في الواقع كوسموبوليتيا ، أي قومية سطحيا وغريبا أو أوروبيا سطحيا – بينما كان لينين قومية عميقا وأوروبيا عميقا... ( هوامش على ميكيا فيلي " ، ص67 ) .

32- أنظر تحليل لوشو ماغري "القيمة التجارية الجبهوية وحدودها" في عدد شباط 1966 من " الأزمنة الحديثة " ( سبق أن ترجمت هذه المقالة في مجلة "دراسات عربية"-المعرب-). ولا مندوحة من القول بأن تصور ستالين اللاحق عن "الحرب الباردة" التي كانت في رأيه "صراعا طبقيًا على الصعيد الأممي" على أساس أن الدول والطبقات شيء واحد يمثل الخطأ المناقض ولكن المماثل لخطأ تروتسكي في العشرينات.

33- " تاريخ الثورة الروسية". ص 18 . السويد من ن.ك . -المعرب-

34- الإشارة هنا إلى سياسة الكومنترن التي لم تميز بين أهمية خطر النازية الصاعدة وبين أهمية خطر الانتهازية الديموقراطية – الاشتراكية في الغرب .-المعرب-

35- "الثورة المغدورة".

## نقد نقد

### (رد على نيقولا كراسو)

#### بقلم ارنست ماندل

ان نقد نيقولا كراسو لفكر تروتسكي ونشاطاته السياسية يتيح لنا فرصة طيبة لتسليط الضوء على بعض التصورات المغلوطة وبعض الآراء المسبقة التي ما تزال تسيطر على عدد لا بأس به من المثقفين اليساريين غير المنحازين . ومن السهل ان نضع أيدينا على جذور هذه التصورات الخاطئة . فلئن كان القادة السوفييت الحاليون يقرون اليوم بالجرائم الشنيعة التي اقترفها ستالين ويفضحونها علنا وجهارا . فإنهم لا يعلنون البتة بالمقابل عن تبنيهم للسياسة التي ناضل تروتسكي في سبيلها طوال السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته ولم يرجع قادة البلدان "الاشتراكية" ( باستثناء كوبا وحدها). إلى مبادئ الديمقراطية السوفياتية والأممية الثورية التي كان تروتسكي يذود عنها . لا على مستوى التنظيم في أقطارهم بالذات ولا على مستوى سياستهم العالمية .

بيد ان سقوط ستالين من عالي السدة التي كان يتربع عليها وتبوت صحة عدد من الاتهامات التي وجهها تروتسكي إليه هما اليوم بمثابة ثأر تاريخي رائع بالنسبة إلى ذلك الذي اغتاله أحد عملاء ستالين في 20 آب 1940 في كويواكان.

ان جميع أولئك الذين يقفون خارج صفوف النضال من اجل وضع برنامج تروتسكي موضع تطبيق – هنا بالتحديد يكمن ثأره السياسي الكامل- سيحاولون بالتالي ان يبرروا استنكافهم بما ينطوي عليه هذا البرنامج من عيوب وأخطاء ونقاط ضعف . وهم إذ يسلكون هذا المسلك لن يكرروا المبالغات والتزويرات الفظة التي اختلقها ستالينيو الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات . ومن قبيلها اتهام تروتسكي بأنه كان "مضادا للثورة" و"عميلا للامبريالية" . وبأنه تمنى ، أو على الأقل ، سهل موضوعيا الردة الرأسالية في الاتحاد السوفياتي . ومن هنا لا يعود أمامهم من سبيل غير الانكباب على الحجج التي شهرها المعارضون الأكثر رهافة وذكاء ممن انحوا باللائمة على تروتسكي . في فترة العشرينيات . لأنه كان في الواقع "غير بلشفي" و" اشتراكيا – ديمقراطيا يساريا" لم يفهم شيئا من خصائص روسيا. أو من ارابة النظرية اللينينية في التنظيم . أو من الجدل المعقد المركب للنضال البروليتاري في الغرب والشرق . وهذا بالتحديد ما يحاول كراسو ان يفعله.

## 1- الطبقات والأحزاب والاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية

ان أطروحة كراسو المركزية لفي غاية البساطة : فخطيئة تروتسكي المهنية في نظره هي جهله بدور الحزب الثوري . فلقد كان يعتقد ، على حد زعم كراسو ، بأن القوى الاجتماعية قادرة بصورة مباشرة وفورية على صنع التاريخ. وبأنها قابلة للتحويل دونما وسيط إلى منظمات سياسية . وهذا ما حال بينه وبين فهم النظرية اللينينية في التنظيم . ورمى به في شباك "نزعة سوسيولوجية" فجة وفي شباك النزعة الإرادية. وهاتان النزعتان السوسيولوجية والإرادية هما الكامنتان وراء طرده من صفوف البلاشفة في عام 1904 . ودوره في ثورة اكتوبر . وإنشائه الجيش الأحمر . وهزيمته في صراعات الحزب الداخلية في فترة 1923-1927. وتصوره عن التاريخ . و"محاولته الفاشلة" في بناء الأممية الرابعة . وزبدة القول ان ماركسية تروتسكي . في فرضية كراسو. ذات "وحدة متلاحمة ومميزة من أول شبابه إلى آخر شيخوخته".

لن يماري أحد في أن تروتسكي رفض جوهر نظرية لينين في التنظيم قبل 1917 (1). ونحن لن نماري في أن الحزب والايديولوجيا بسيكولوجيا الطبقات

الاجتماعية يمكن ان تكتسب درجة من الاستقلال الذاتي في السيرورة التاريخية . ولا في أن الماركسية على حد تعبير كراسو(لا الماركسية-اللينينية فحسب. بل أيضا سائر التأويلات الوفية أمذهب ماركس) "تحدد بمفهوم الكلية المركبة التي تكون جميع المستويات-الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإيديولوجية-فعالة فيها على الدوام . والتي يتنقل فيها المركز الرئيسي للتناقضات بين مختلف المستويات . بيد أن هذه النظرة لا تقدم إلا أساسا في منتهى الفقر لتبرير أطروحة كراسو. وحين نحاول تحليل فكر تروتسكي الحقيقي وتطوره على مدى أربعين عاما . نصطدم عند كل خطوة بعدم كفاية الصورة التي يرسمها كراسو وبعدم أمانتها .

فمن الخطأ الزعم ،بادئ ذي بدء ، ان تروتسكي عندما نبذ جانبا النظرية اللينينية في التنظيم قد استوحى نموذجه الخاص به من الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الألماني بوصفه "حزبا يضم الطبقة العاملة بأسرها" . والأصح تاريخيا ان نقول العكس. على اعتبار ان النظرية اللينينية في التنظيم قد اقتبست في معظمها عن منظري الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية والنمساوية . كما تسكي وأدلر(2). ولقد بنى تروتسكي معارضته - التي أسىء فهمها- لنظرية لينين على تشككه وريبته بالجهاز الاشتراكي-الديمقراطي الغربي الذي كان يرى فيه جهازا محافظا في جوهره . ويقر كراسو نفسه بعد بضع صفحات . بأن تروتسكي وقف منذ عام 1905 من الاشتراكية-الديمقراطية الغربية موقفا أكثر انتقادية من موقف لينين . فكيف يمكن القول . والحالة هذه . ان نقل فكرته عن الحزب عن تلك الاشتراكية-الديمقراطية(3)؟

ومن الخطأ ثانيا الإيحاء بأن تروتسكي استمر في تجاهل أو نبذ النظرية اللينينية عن التنظيم بعد أن أقر بأن الحق كان إلى جانب لينين .في عام 1917 . فهذه الفرضية لا تقوم على أساس من الحقيقة . ولقد صرح لينين نفسه-بعد أن فهم تروتسكي استحالة الاتحاد مع المناشفة بسبب سياسة المصالحة التي كانوا ينتهجونها- بأنه "ليس هناك بلشفي أفضل من تروتسكي"(4). وجميع كتابات تروتسكي بعد عام 1917 تلح على الدور الحاسم للحزب الثوري في عصرنا. فقد نوه وأعاد التنويه بلا كلل بأن مسألة بناء الأحزاب الثورية هي مفتاح مشكلات عصرنا:" تتلخص الأزمة التاريخية للإنسانية في أزمة القيادة الثورية "(5). ونحن نجد مثل هذا التوكيد في كل منعطف من حياته :في "دروس اكتوبر" و"الخط الجديد" عام 1923. وفي "برنامج المعارضة اليسارية" عام 1926. وفي نقده لسياسة الكومنترن المفجعة في الصين و ألمانيا واسبانيا

وفرنسا . وفي الثلاثينات في "تاريخ الثورة الروسية" وفي وصيته السياسيتين : "البرنامج الانتقالي للأمية الرابعة" و "بيان المؤتمر الاستثنائي". فكيف يقال بعد هذا أنه "أهمل" دور الطليعة وآمن بأن القوى الاجتماعية تستطيع أن تصنع التاريخ مباشرة وبلا وسيط؟!!

صحيح أن الطليعة الثورية لم تكن في نظر تروتسكي مجرد آلة سياسية محكمة البناء وجيدة التشحيم . فمثل هذا التصور-الذي يرجع أصلا إلى السياسة البورجوازية الأميركية التي يصعب تمييزها عن سياسة رجال العصابات- كان غريبا كل الغربة عن لينين والبلشفية والحركة العاملة الأممية بأسرها . إلى ان تبناه ستالين ووضع موضع تطبيق في الكومنترن . ولقد كان تروتسكي ولينين وكل تيار من التيارات الماركسية يرون أن من واجب الحزب الثوري الطليعي ان يحاكم نفسه موضوعيا على ضوء برنامج المعطن وسياسته الراهنة . وفي كل مرة ينزلق فيها الحزب إلى العمل ضد مصالح الثورة والطبقة العاملة فلا مندوحة من شن النضال لتقويمه . مهما يكن قويا ومهما يكن حسن التشحيم . وفي كل مرة تتناقض فيها أعماله، على امتداد مرحلة بكاملها وليس بصورة عارضة مع مصالح البروليتاريا ، لا يعود بالإمكان اعتباره بصورة من الصور حزبا ثوريا طليعيا . وتنطرح على الفور مهمة بناء حزب جديد.

وبديهي أن لينين وتروتسكي لم يقيسا قط الحزب الثوري ببرنامج الصحيح وحده . وقد أعلن لينين بلا لبس أن السياسة الصحيحة لا يمكن أن تقم الدليل على صحتها على المدى الطويل إلا بقدرتها على اكتساب قسم من الطبقة العاملة- وفي الواقع غالبيتها . ولكن هذين العنصرين متكاملان من حيث دورهما في بناء حزب ثوري طليعي . فالحزب في حال افتقاره إلى برنامج وسياسة صحيحة قد يتحول موضوعيا إلى حزب مناهض للثورة . ومهما تكن هيمنته على الطبقة العاملة واسعة . كما أن الثوريين المسلحين بأفضل البرامج قد ينحطون إلى عصابة عقيمة في حال عجزهم عن اكتساب نفوذ جماهيري داخل الطبقة العاملة على المدى الطويل.

يتضح لنا، ثالثا ، ان كراسو، بدلا من أن يحل المشكلة بتوكيده "الاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية". ذلك الاستقلال الذي لم يستوعبه تروتسكي على حد زعمه . قد طرح سؤالا جديدا من دون ان يجيب عليه . ذلك أن المشكلة إنما هي على وجه التحديد مشكلة تفهم الاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية والطابع النسبي لهذا الاستقلال معا . وعلى كل فان ماركس وانجلز ، لا تروتسكي، هما اللذان أكدا أن التاريخ بأسره في التحليل الأخير تاريخ صراع

الطبقات! وما المؤسسات السياسية إلا أجهزة وظيفية. فإذا انفصلت عن القوى الاجتماعية التي تقوم هذه المؤسسات بخدمتها. فقدت بسرعة كبيرة فاعليتها وسلطتها. هذا إن لم نقل تستخدمها قوى اجتماعية أخرى. هذا بالتحديد ما وقع لستالين ولجناحه داخل الحزب البلشفي.

يزعم كراسو أن تروتسكي كان على الدوام ضحية" تهوينه المتواصل للسلطة المستقلة ذاتيا للمؤسسات السياسية". والواقع أن ستالين هو الذي وقع ضحية إيمانه بالإمكانات المستقلة ذاتيا ل"سياسة القوة" التي جعلت منه أداة لاعية للقوى الاجتماعية التي لم ينته إلى وجودها على ما يبدو حتى نهاية حياته. ولو أن ستالين أدرك. في مستهل العشرينات. أنه سيجد نفسه مرغما بحكم الطريق الذي اختاره على اغتيال ثلاثة أرباع الملاكات العليا والوسطى من البلاشفة القدامى وعلى تصفية الكومنترن وعلى تطبيق نظام العمل الإجباري في المصانع وعلى سن قانون للعقوبات هو من أقسى ما عرفته العصور الحديثة. لكان في غالب الظن تراجع مذعورا: فلقد كان ما يزال آنذاك بلشفيًا بهذا القدر أو ذاك بعد كل شيء.

ان سياسة القوة"الخالصة" التي يبدو كراسو معجبا بها أشد الإعجاب تدل أبطالها إلى درجة يفقدون معها نهائيا السيطرة على زمام أعمالهم بالذات. وتتراخي الرابطة بين الغايات الواعية والنتائج الموضوعية لهذه الأعمال حتى لتكاد تتلاشى. أما الماركسيون فيعلقون على العكس كبير الأهمية على العمل الواعي. والوعي يفترض وعي الدور الحاسم للقوى الاجتماعية وللحدود التي يفرضها هذا الدور حتما على كل فرد. وعدم تفهم كراسو لهذه العلاقة الجدلية بين الحزب والطبقة واستخفافه بالمشكلة هما السبب في ضعف دراسته من جذورها.

لا تستطيع الطبقة العاملة الانتصار بدون حزب طليعي. ولكن الحزب الطليعي هو بالمقابل نتاج الطبقة العاملة. وإن لم يكن نتاجها وحدها. وهو لا يستطيع أداء دوره إلا إذا مدعوما بتأييد أنشط فصائل الطبقة العاملة. ومن جهة أخرى لا تستطيع هذه الطبقة. في حال عدم توفر الشروط الموضوعية الموائمة. أن تنتج مثل ذلك الحزب الطليعي. كما لا يستطيع الحزب الطليعي أن يقودها إلى النصر. وأخيرا. في حال انعدام التفهم الصاحي لهذه المشكلات. لن يقوم قائم لأي حزب طليعي. حتى لو كانت الشروط موائمة. وستلاشى فرص انتصار الثورة لحقبة طويلة من الزمن.

لقد استوعب تروتسكي تماما هذه العلاقة الجدلية ابتداء من عام 1916. وطبقها على عدد من المواقف العينية تطبيقا جليلا رائعا بجانب الصواب معه من يؤكد . كما يفعل كراسو. بأن تروتسكي "ما عرف كيف يميز السلطة المستقلة ذاتيا للمؤسسات السياسية". إن كراسو نفسه يعرف مقالات تروتسكي عن الفاشية الألمانية بأنها "الكتابات الوحيدة التي توقعت في تلك السنين النتائج المأساوية للنازية وللسياسة الحمقاء التي انتهجها الكومنترن تجاهها في مرحلته الثالثة". ولكن كيف أمكن لتروتسكي أن يقدم مثل هذا التحليل الناجح الصحيح لتطور المجتمع الألماني بين 1929 و 1933 بدون تمحيص مفصل وبدون تفهم لا للطبقات الاجتماعية والتكتلات فحسب. بل أيضا لأحزابها؟ ألا تقيم هذه الكتابات الرائعة الدليل على قدرته على تقييم أهمية الأحزاب تقييما صحيحا. ولا سيما الأحزاب التي لها نفوذها في أوساط الطبقة العاملة؟ ألا تتلخص تحذيراته في هذه الصيحة التنبؤية: "إما أن تكافح الأحزاب الشيوعية و الاشتراكية-الديمقراطية جنبا إلى جنب هتلر. وإما أن يسحق هتلر الطبقة العاملة الألمانية لحقبة طويلة من الزمن"؟ ألم يكن هذا النداء مبنيًا على وجه التحديد على إدراك تروتسكي لعجز الطبقة العاملة عن مواجهة الخطر الفاشي بدون اتحاد الأحزاب العمالية؟ ألا يقترن هذا التحليل كله بدراسة لا تقل عنه دقة لتطور المؤسسات السياسية البورجوازية. الأمر الذي أتاح لتروتسكي إمكانية كشف القيمة الشمولية لمفهوم ماركس عن البونابرتية في عصرنا؟ وعلى ضوء هذه الوقائع كافة. ماذا يتبقى من أطروحة كراسو القائلة أن تروتسكي ارتكب خطأ "التهوين من أهمية السلطة المستقلة ذاتيا للمؤسسات السياسية" حتى آخر رفق في حياته؟

## 2- الصراع على السلطة والمصادمات الاجتماعية في الإتحاد السوفياتي (1923-1927)

يتجاذب كراسو. حين دراسته "الصراع على السلطة" داخل الحزب الشيوعي السوفياتي بين 1923 و 1927. خطان فكريان متناقضان. فمن جهة أولى يزعم أن تروتسكي اقترف الخطأ تلو الخطأ باستهانته بالاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية. فقد رفض التحالف مع اليمين ضد ستالين فمكن هذا الأخير من الانتصار. على اعتبار أن الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون هذا الانتصار كانت توحيد جميع البلاشفة القدامى ضد ستالين. ومن الجهة الثانية

يؤكد أن تروتسكي ما كان يملك أي حظ في الانتصار بسبب موقف الحرس البلشفي القديم الذي كان متحدا بأسره ضده عام 1923: "بالفعل. كان ستالين قد سيطر على التنظيم الحزبي منذ عام 1923". ان هذين الخطين الفكريين لمتناقضان. ففي الحالة الأولى كان انتصار ستالين نتيجة لأخطاء خصمه. وفي الحالة الثانية كان هذا الانتصار محتوما.

ويبرز ضعف تحليل كراسو بجلاء من حيث أن كلتا الصيغتين لا تقدمان أي تفسير. فالوقائع مفترضة افتراضا قبليا-أو بالأحرى تأويل كراسو الخاطئ جزئيا للوقائع. فنحن لا ندري طبقا للرواية الأولى لماذا تجاهل جميع البلاشفة القدامى. لا تروتسكي وحده. تحذيرات لينين من قوة ستالين. ولماذا اتحدوا مع هذا الأخير ضد تروتسكي بدلا من أن يتحالفوا مع تروتسكي في نضاله ضد ستالين. ونحن لا ندري طبقا للرواية الثانية لماذا غدا ستالين بين عشية وضحاها السيد المهيمن على الحزب ابتداء من عام 1923. بينما كان لينين ما يزال على قيد الحياة. أيعود ذلك إلى براعته في المناورة داخل الحزب. أم إلى "صبره العظيم"؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك. فهذا معناه أن ستالين برز ماردا بين أقزام. وأن لينين نفسه قد وقع في حبال مناورات السكرتير العام المراوغ... وفي مثل هذه الحال يقف العلم الاجتماعي عاجزا تمام العجز عن فهم التاريخ. ولا يعود هذا الأخير سوى حبة ل"الصراع على السلطة" في سياق فراغ اجتماعي كامل. فالملايين من ضحايا التجميع القسري والعمل الإجباري. واستيلاء هتلر على السلطة. وهزيمة الجمهوريين الإسبانين. وضحايا الحرب العالمية الثانية البالغ تعدادهم خمسين مليوناً. هذا كله لن يكون السبب فيه إلا ذلك الحادث العارض. حادث ولادة جوزيف ستالين. وهنا تبرز النتيجة النهائية للإلحاح على الاستقلال الذاتي المطلق للمؤسسات السياسية المنفصلة عن القوى الاجتماعية. وللامتناع عن اعتبار الصراعات السياسية انعكاسات. في التحليل الأخير. للمصالح المتناقضة للقوى الاجتماعية. وقد لاحظ ماركس . في المقدمة الطبعة الثانية لكتابه "18 برومير لوي بونابرت". ان فكتور هيغو إذ اعتبر استيلاء لوي-بونابرت على السلطة ضربة معلم من قبل فرد قد "عظمه بدل من ان يصغره . ناسبا إليه قوة المبادرة الشخصية لا سابق لها في التاريخ ". وما أصغر حجم نتائج استيلاء لوي-بونابرت على السلطة بالمقارنة مع نتائج استيلاء ستالين على السلطة .

ان المنهج الصحيح لفهم وتفسير ما حدث في روسيا لبن 1923 و 1927 . أو بالأحرى بين 1920 و 1926 . هو ان نبين . كما يقترح ماركس ذلك في

المقدمة الأنفة الذكر . " كيف أمكن لصراع الطبقات ان يخلق ظروفًا ووضعًا أتاحت لشخص قليل الذكاء " ان يصبح بطلاً ودكتاتوراً .

ومما له دلالة في هذا السياق بالنسبة إلى منهج كراسو غير الماركسي ليس نظرته إلى الصراعات داخل الحزب بوصفها صراعات " متمركزة على ممارسة السلطة كسلطة " . أي منفصلة عن المسائل السياسية التي هي موضع جدال والتي هي محور تلك الصراعات . إنما المهم بوجه خاص امتناعه عن ربط الصراع السياسي . كما يعتبر عن نفسه من خلال الأفكار أو البرامج المتباينة . بالتناقضات الاجتماعية ان بصورة مباشرة أو غير مباشرة . هنا تأخذ فكرة الاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية شكلاً بالغ التطرف يتنافى والمادية التاريخية . وبالفعل . عندما ينحي كراسو باللائمة على تروتسكي لأنه كتب أنه " حتى الاختلافات الآنية في وجهات النظر . وحتى الفروق البسيطة في الآراء قد تكون تعبيراً عن الضغط الخفي الذي تمارسه مصالح اجتماعية متميزة " . وإنما يلومه على كونه ماركسياً! ذلك ان هذه الجملة الدقيقة المحددة لا تفترض . على حد ما يزعم كراسو . وجود "وحدة هوية" بين الأحزاب والطبقات . وإنما تفترض ان الأحزاب . في التحليل الأخير . تمثل مصالح اجتماعية . ولا يمكن فهمها تاريخياً إلا بصفاتها ناطقة بلسان مختلف المصالح الاجتماعية . هذا الضغط ما عرضه ماركس بالتفصيل في "صراع الطبقات بفرنسا" وفي "18 برومير لوي – بوناپرت" . هذا إذا لم تشأ ان نتكلم إلا عن مؤلفاته المعروفة أكثر من غيرها .

ولا غرو في هذه الشروط إلا يكون كراسو قد أتى ولو لمرة واحدة بذكر البنية الاجتماعية التي تجعل كل تاريخ روسيا في العشرينات قابلاً للفهم بمصطلحات اجتماعية – تاريخية : اعني البيروقراطية . ولا يجوز لنا ان نعد إلحاح تروتسكي المكرر على دور البيروقراطية كقوة اجتماعية ذات مصالح منفصلة (6) عن مصالح البروليتاريا مجرد مزاج شخصي . فمند عام 1871 لفت ماركس وانجلز الانتباه . في كتاباتهما عن عامية باريس . إلى خطر سيطرة البيروقراطية على الدولة البروليتارية . وعددا جملة من التدابير البسيطة لاتقاء هذا الخطر . ولقد نبه كاو تسكي . في خير مراحل نضجه . يوم كان لينين يعد نفسه تلميذاً له . إلى ذلك الخطر بصورة تنبؤية في عام 1898 . كما نوه لينين بخطورة هذه المشكلة في "الدولة والثورة " وفي أول برنامج بلشفي بعد ثورة أكتوبر .

لقد كان من حقنا ان ننتظر من كاتب . مثل كراسو. يدرج نفسه في عداد كبار المعجبين بلينين . ان يعير النزر اليسير على الأقل من انتباهه لمصير المعركة الرئيسية الأخيرة التي خاضها لينين ولوسواس الذي تسلط عليه في أواخر حياته : النضال ضد البيروقراطية . فلقد أبى لينين منذ عام 1921 ان يعرف الإتحاد السوفياتي بأنه دولة عمالية . وصرح على العكس بان روسيا " دولة مشوهة بيروقراطيا " . ولقد كانت هواجسه ومخاوفه تتعاظم يوما بعد يوم . وفي وسعنا ان نتتبع هذا التطور بعد مقال في كتاباته الأخيرة كافة وفي آخر دراسة له وفي وصيته.

لقد أدرك لينين . بلا أدنى ريب . الارتباط العيني بين الصيرورة الاجتماعية – سلبية سياسية متنامية من جانب الطبقة العاملة وتعاظم قوة البيروقراطية في جهاز الحزب والمجتمع – وبين الصراعات الداخلية في الحزب . ولقد فهم تروتسكي بدوره . بلا أدنى ريب . تبعاً للمنهج نفسه – وان بشيء من التأخير – ذلك الارتباط وحدد مسلكه على ضوءه . والمأساة أنما تكمن في ان سائر أعضاء الحزب البلشفي لم يتبينوا في الوقت المناسب خطر البيروقراطية وخطر صعود ستالين ممثلاً للبيروقراطية السوفياتية . ولقد تنبه جميعهم للخطر في خاتمة المطاف . في مرحلة أو في أخرى . ولكن ليس في آن واحد ولا في زمن مبكر . هذه هي العلة الأساسية للسهولة الظاهرية التي استولى بها ستالين على السلطة .

لا مجال للشك في ان تروتسكي ارتكب أخطاء تكتيكية في النضال . أخطاء لا يمكن ان تخفى اليوم عن مؤلفين من أمثال كراسو ممن لا يملكون القدرة على التنبؤ بالأحداث السياسية إلا بعد وقوعها (7). ولكن لينين ارتكب هو الآخر أخطاء. فلينين هو الذي خلق. بعد كل شيء . جهاز الحزب الذي كان قد شرع بالانحطاط . ولينين هو الذي قدم تغطية. بما يتمتع به من هبة شخصية . لسلسلة من التدابير الإدارية والحزبية التي سهلت إلى ابعد الحدود انتصار البيروقراطية. والتي نعلم اليوم – بحكم القدرة على التنبؤ بالأحداث بعد وقوعها – انه كان في الإمكان تجنبها من دون ان يتقوض كيان الثورة . ومن قبيل تلك التدابير: قاعدة السلطة الشخصية لمدير المصنع ز والمبالغة في أهمية الحوافز المادية. والشطط في التوحيد بين هويتي الحزب والدولة . وإلغاء بقايا الأحزاب أو التكتلات السوفياتية الأخرى باستثناء الحزب البلشفي في زمن كانت الحرب الأهلية فيه قد ( مع ان النظر قد غض عن تلك التكتلات نفسها إبان الحرب

الأهلية بشرط ألا تتحالف مع الثورة المضادة). وأخيرا إلغاء الحق التقليدي لأعضاء الحزب البلشفي في تشكيل أجنحة (8).

ومن الممكن أن نعمم ونقول أن لينين. بعد انتهاء الحرب الأهلية وابتداء السياسة الاقتصادية الجديدة. قد هَوّل من شأن الخطر المباشر الذي يمكن أن ينجم عن تراخي الانضباط في الحزب وهوّن من شأن خطر البيروقراطية التي كان لابد أن توطد أقدامها بسرعة في أعقاب إلغاء الحريات المدنية) التي كانت الاتجاهات غير البلشفية ما تزال تتمتع بها) وفرض القيود على الديموقراطية الداخلية في الحزب. ويرجع أصل هذا الخطأ إلى الإيمان بوجود تطابق صميم في الهوية بين الحزب البروليتاريا. وإلى الاعتقاد بأن الحزب يدافع تلقائيا عن مكاسب البروليتاريا. ولقد أدرك لينين بعد مرور بضع سنوات مدى خطئه. ولكن الأوان قد فات لخنق هيمنة البيروقراطية على جهاز الحزب في مهده.

إن كراسو لعل على خطأ تام عندما يعتقد بأن تروتسكي قد استخف بالاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية خلال فترة نضاله الدرامي داخل الحزب بين 1923 و1927. والعكس هو الصحيح. فاستراتيجيته السياسية في تلك الفترة لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء استيعابه للعلاقة الخاصة الجدلية بين الشروط الموضوعية للمجتمع السوفياتي. المحاط بدول رأسمالية معادية. وبين الدور المستقل ذاتيا للحزب البلشفي في تلك المرحلة الخاصة وفي تلك الشروط العينية.

ولأن كراسو لم يفهم هذه الإستراتيجية. ولأنه مأخوذ بالرغبة في تفسير مواقف تروتسكي انطلاقا من خطيئته الأصلية المزعومة. نراه دهشا متحيرا يفتقر إلى تلاحم المنطق وتماسكه. فهو يقول أن "تروتسكي لم يفكر قط بمشكلة البعد السياسي للخط الاقتصادي الذي كان يدعو إلى تطبيقه في العشرينات". وهذه السياسة الاقتصادية لم تكن في رأي كراسو إلا نتيجة لمواهب تروتسكي "كإداري". لا نتيجة لإنشاء سياسي صحيح يأخذ بعين الاعتبار شتى القوى الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي. وعلاوة على ذلك فإن تلك السياسة ما كانت منبثقة عن نظريته في الثورة الدائمة التي تعني أن "الاشتراكية في بلد واحد غير قابلة للحياة" لأنها لابد ان تتقوض أمام غزو السوق العالمية والعدوان الإمبريالي الأجنبي...إننا لنتساءل إزاء هذا التشويه الكثيف للتاريخ. عم إذا كان لهذا الهذر الذي يعزوه كراسو إلى تروتسكي من وجود في غير رأس كراسو وحده؟

إنه لمن الهذر. بالفعل. معارضة مفهوم تروتسكي عن "الثورة الدائمة" (9). ببرنامج الاقتصاد الذي وضعه لمواجهة ظروف استثنائية. فكيف يمكن لماركسي يولي مثل تلك الأهمية للأفكار وربطها- على حد زعم كراسو- ربطاً مباشراً" بالتكتلات الاجتماعية. أن يناضل من أجل تنمية اقتصادية سريعة للاتحاد السوفياتي وأن يفترض في الوقت نفسه أن كل شيء مرهون بثورة أممية وشيكة لا مندوحة من انهيار الاتحاد السوفياتي في حال عدم وقوعها؟ ألا يجعل التوكيد الثاني من النضال الاقتصادي خيالياً؟ إن هذا التناقض الذي لا بد أن يلازم كل تفسير محور لنظرية الثورة الدائمة يعجز عن حله نقاد أمس واليوم الستالينيون والأغبياء من التلاميذ المنتمين زعماً إلى اليسار المتطرف على حد سواء. وبالمقابل. ما أسهل فك اللغز إذا ما طرحت المسألة طرحاً عينياً: فكل ما أكدته تروتسكي في "قانونه الثالث للثورة الدائمة" هو أن المجتمع الاشتراكي الناجز. أي المجتمع اللاتبقي المتحرر من التجارة والعملية والدولة، لا يمكن أن تقوم له قائمة في حدود دولة واحدة ( علاوة على أنها كانت أكثر تخلفاً من معظم الدول الرأسمالية المتقدمة في ذلك العصر(10). فتروتسكي لم ينف في لحظة من اللحظات ضرورة البدء ببناء الاشتراكية وتحقيق تنمية اقتصادية متسارعة لا بديل عن المضي بها ما دامت الثورة محصورة في بلد واحد. وهو الذي كان. على جميع الأحوال. أول من اقترح عينياً سياسة لتسريع التصنيع.

إذا كانت المناظرة برمتها قد دارت حول مشكلة نظرية مجردة. مشكلة إنجاز بناء الاشتراكية المتميزة عن الشيوعية (التي تفترض اختفاء تقسيم العمل الاجتماعي اختفاء تاماً). فمن الممكن أن نتساءل لماذا ليست المناقشة ذلك الشكل البالغ الحدة؟ ألم يقترف تروتسكي غلطة تكتيكية فادحة إذ ربط مصيره الشخصي بمعركة كهذه يصعب فهمها على غالبية أعضاء الحزب؟ الحقيقة أن تروتسكي ليس هو الذي أثار المشكلة. وإنما ستالين وجماعته. ولقد كانت هذه. بلا ريب. حركة تكتيكية "بارعة" استهدفت قطع الأواصر بين تروتسكي وأنصاره وبين الملاكات البلشفية الاميل إلى الذرائعية. إلا أن القسم الأكبر من الحزب البلشفي القديم. بما فيه أرملة لينين. انحاز إلى المعارضة اليسارية الموحدة. وكان زينوفييف وكامينيف بوجه خاص أشد الناس اندفاعاً في هذه المعركة. هكذا أصبحت معارضة تروتسكي لنظرية "الاشتراكية في بلد واحد" محور أوثق تعاون له مع الحرس القديم من الحرب الأهلية.

ولم تكن شعوزات ستالين الايديولوجية ولا مقاومة الحرس القديم لها مجانية عارضة. ففي نظرية "الاشتراكية في بلد واحد" كانت البيروقراطية تعبر عن وعيها الوليد لسلطتها وتدير ظهرها بصلف لمبادئ الماركسية-اللينينية الأساسية. كانت في سبيلها إلى "الانعتاق" لا من الثورة العالمية فحسب. وإنما أيضا من الميراث اللينيني بكامله. وكانت تعتقد. بالمناسبة. أن أمامها مهمات أعجل و أعظم من مهمة الاعتماد على العمل الواعي للطبقة العاملة السوفياتية والعالمية. أما الحرس القديم فقد برهن بمعارضته هذا الانحراف عن بديهيات النظرية الماركسية. على مزاياه الأساسية. فقد كان على استعداد للسير وراء ستالين "حفاظا على وحدة الحزب" و" حماية لدكتاتورية البروليتاريا". ولكنه كان ينفر من المضي قدما إلى الأمام إلى حد التخلي الصريح عن المبادئ الأساسية لنظرية لينين. وكما ذكرنا أنفا كانت مأساة العشرينات هي في الواقع مأساة ذلك الحرس القديم. أي حزب لينين بدون لينين. ولكن ستالين أصبغ عليه أسمى درجات التكريم إذ أباده إبادة جسدية كاملة. مدلا بذلك على قناعته بأن الحرس القديم بطبيعته عدو "لا تمكن استماتته" للدكتاتورية البيروقراطية القائمة في الثلاثينات والأربعينات.

ان فكر تروتسكي في العشرينات يؤلف في الواقع وحدة جدلية متلاحمة. وإن جزأه كراسو إلى شتات متفرق عديم التلاحم. فلقد كان تروتسكي على قناعة ثابتة بأن المجتمع السوفياتي. الآخذ بالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية. لن يتمكن من حل مشكلاته تدريجيا في إطار السياسة الاقتصادية الجديدة. وكان ينبذ فكرة التعايش السلمي بين إنتاج بضاعي صغير وصناعة اشتراكية. وكان على يقين بأن القوى الاجتماعية المتناحرة لا بد أجلا أو عاجلا من أن يتواجه على الصعيد القومي أو الأممي. ويمكن تلخيص سياسته بما يلي: تأييد كل ما يشد من أزر البروليتاريا على الصعيد القومي أو الأممي ويزيد ثقتها بنفسها وقيادتها الثورية. وإضعاف جميع الميول التي تنزع على الصعيد القومي أو الأممي إلى تجزئة الطبقة العاملة أو إلى النيل من قدرتها وتصميمها على الدفاع عن نفسها.

ومن هذا المنظور يضحى كل شيء متلاحما. ولا يعود هناك من لغز. فتروتسكي من أنصار التصنيع لأن التصنيع لا غنى عنه لتقوية البروليتاريا داخل المجتمع السوفياتي. وهو من أنصار تطبيق الجماعية بالتدرج في الأرياف للتخفيف من ضغط الفلاحين الأغنياء على الدولة البروليتارية وللتقليل من احتمالات الابتزاز الذي قد يمارسونه على المدن عن طريق التهديد بإيقاف

توريد الحبوب إليها. وهو من أنصار الجمع بين التصنيع المتسارع والتجميع التدريجي للأراضي لأنه لا بديل عن خلق بنية تحتية تقنية للمزارع الجماعية (جرارات وآلات زراعية) (11). وإلا فإن التجميع قد يسلب شبح المجاعة على المدن. وهو من أنصار توسيع نطاق الديمقراطية في السوفييتات بهدف حفز نشاط الطبقة العاملة ووعيتها السياسيين. وهو من أنصار القضاء على البطالة وزيادة الأجور الواقعية لأن التصنيع إذا ما صاحبه انخفاض في مستوى حياة العمال قلص النشاط السياسي المستقل ذاتيا للبروليتاريا بدلا من أن يزيده (12). وهو من أنصار خط الكومنترن يحسن الاستفادة من جميع الشروط المواتمة لانتصار البروليتاريا في الأقطار الأخرى. ويعدل بالتالي ميزان القوة العالمي لصالح البروليتاريا. وصحيح ان تطبيق هذه الإجراءات مجتمعة ما كان ليحول دون الصدام مع العدو. ولكن هذا الصدام كان سيحدث في شروط أنسب بكثير من شروط 1927-1932 في الداخل. ومن شروط 1941-1945 في الخارج.

هل كان هذا البرنامج "غير واقعي"؟ كلا. فالشروط الموضوعية لوضعه موضع تطبيق كانت متوفرة. ولا يستطيع أي مؤرخ غير متحامل أو منحاز أن يشك اليوم في ان البروليتاريا والشعوب السوفياتية كانت ستتجنب تضحيات وآلام لا حصر لها. وفي ان الإنسانية كانت ستتحاشى ان لم نقل الحرب فعلى الأقل آفة الفاشية التي اجتاحت أوروبا على مدى عشر سنوات قاضية على عشرات الملايين. فيما لو ان الخط الآخر ذاك هو الذي جرى إتباعه. ولكن ذلك البرنامج كان غير واقعي. أجل، من حيث ان الشروط الذاتية لوضعه موضع تطبيق لم تكن متوفرة. فلقد كانت البروليتاريا السوفياتية سلبية ومجزأة. وكانت تنظر إلى برنامج المعارضة اليسارية بعين محبذة. ولكنها ما كانت تملك ما فيه الكفاية من الطاقة الكفاحية للنضال في سبيل تطبيقه. وبخلاف ما يعتقد كراسو. ما كان تروتسكي يعلل نفسه بالأوهام بصدد هذا الموضوع.

لو هجر تروتسكي صفوف الحزب البلشفي آنذاك وشكل حزبا جديدا (سريا). لكان اعتمد أكثر مما ينبغي على طبقة عاملة لا تني تزداد سلبية. ولو اعتمد على الجيش ونظم انقلابا. لكان في الواقع استبدل جهازا بيروقراطيا بآخر وقضى على نفسه بان يغدو أسير البيروقراطية. وجميع أولئك الذين يلومون تروتسكي على إحجامه عن سلوك أحد هذين الطريقتين. لا يفهمون الوضع من وجهة نظر اجتماعية وسياسية. فمهمة الثوري البروليتاري ليست "الاستيلاء

على السلطة " بأي وسيلة ومهما تكن الشروط . وإنما استلام السلطة لوضع البرنامج الاشتراكي موضع تطبيق . وإذا كان استلام السلطة غير ممكن إلا في شروط تبعك عن أهداف هذا البرنامج بدلا من ان تقربها إليك . فخير لك ألف مرة ان تبقى في المعارضة ، وقد يرى في ذلك " ضعفا " المولعون غير الماركسيين بسلطة مجردة منفصلة عن الواقع الاجتماعي . أما الماركسي الراسخ القناعة فيرى في ذلك على العكس برهانا على قوة تروتسكي وعلى مساهمته الجلي في التاريخ. لا نقطة ضعف.

ألم يكن نضال تروتسكي في العشرينات مجرد "موقف" سجله برسم التاريخ ل"إنقاذ البرنامج"؟ حتى لو كان الأمر كذلك . فان تروتسكي له مبرراته الكافية تاريخيا. ويكفيه فضلا انه بإنقاذه تراث الماركسية واستمرارها في "الأعوام العشرينات السوداء" قد سهل إلى أبعد الحدود مهمة إعادة تملك الماركسية الحقيقية من قبل الطليعة الثورية العالمية الجديدة.

إلا ان نضال تروتسكي كان له في الواقع هدف آخر ذو طابع عيني اشد بروزا. فلقد كانت الطبقة العاملة السوفياتية سلبية . ولكن سلبيتها على المدى الطويل لم تكن قدرا مقدرا لا راد له. وكان أي انطلاقة جديدة للثورة العالمية وأي تبدل في ميزان القوى الاجتماعية في الداخل قمينين ببعث الطبقة العاملة السوفياتية . ولم تكن الأدوات المباشرة لمثل هذه التغيرات متوفرة إلا في الكومنترن والحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتية . ولقد كافح تروتسكي وقاتل حتى يعرقل الحزب صيرورة الانحطاط البيروقراطي . وكان لينين هو الذي أوكل إليه هذه المهمة . وقد أبان التاريخ فيما بعد ان البيروقراطية كانت قد سيطرت على الحزب لدرجة بات معها يلعب دور المحرك لا دور المعرقل لعملية تجريد البروليتاريا من حقوقها السياسية . ولقد كانت نتيجة ذلك النضال مرهونة في حينه بالاختيارات السياسية العينية لقيادة الحزب الشيوعي السوفياتي-البلاشفة القدامى . وكان أي انعطاف في الاتجاه الصحيح وفي الوقت المناسب كفيلا بان يعكس اتجاه التطور- لا إلى حد القضاء على البيروقراطية تماما (وهذا أمر مستحيل في قطر مختلف تتهدده الرأسمالية) . بل إلى حد قمين بتقليص نفوذها الضار وبإعادة الثقة بالنفس إلى البروليتاريا . وهكذا كان "فشل" تروتسكي هو عين فشل الحرس القديم-الذي لم يفهم إلا بعد فوات الأوان الطبيعة الحقيقية للطفيلي المسخ الذي ولدته الثورة . ولكن هذا "الفشل" نفسه يقطع كل شك في ان تروتسكي لم يفهم العلاقات المركبة المعقدة بين القوى الاجتماعية والمؤسسات السياسية والأفكار في العشرينات.

### 3- هل كان الامتداد العالمي للثورة مستحيلا بين 1919 و 1949

نصل الآن إلى الفصل الثالث في نقد كراسو . وهو أهم الفصول وأضعفها على الإطلاق في آن واحد : المآخذ الذي يأخذه على تروتسكي لأنه انتظر ثورات أجنبية بعد عام 1923 .

ان مفارقة غريبة من نوعها تتسلط على الجزء من مقالة كراسو . فلقد بدأ كراسو مقالته باتهام تروتسكي بالتهوين من أهمية دور الحزب . ولكن هاهو كراسو يعلن الآن ان الأمل الذي عقده تروتسكي على ثورات مظفرة في أوروبا الغربية تفصح عجزه عن "فهم الفروق الأساسية بين البنى الاجتماعية الروسية وبنى أوروبا الغربية" . بعبارة أخرى. كانت الشروط الموضوعية تحول دون إمكانية قيام ثورة عالمي. على الأقل في فترة ما بين الحربين. هنا يدافع كراسو . بالتعارض مع "النزعة الإرادية" التي لام عليه تروتسكي . عن نزعة حتمية اقتصادية واجتماعية فجأة : لما كانت الثورات لم تنجح ( حتى الآن ) في الغرب . ففي هذا برهان على عجزها عن انتزاع النصر . وإذا كانت عاجزة عن انتزاع النصر فإنما بسبب "البنى الاجتماعية الخاصة" بالغرب . أما دور الحزب والطليعة والقيادة و"الاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية" . فانه الآن مسقط من الحساب-وكراسو هو الذي أسقطه – وفي معرض الحجاج ضد تروتسكي . إلا ما أغربه من انقلاب!

ولينين؟ كيف يفسر كراسو ان لينين . الذي وضع على حد تعبير كراسو "نظرية العلاقة الضرورية بين الحزب و المجتمع". كان لا يقل عن تروتسكي اقتناعا بضرورة تأسيس أحزاب شيوعية وأممية شيوعية؟ هل يرى كراسو في موقف لينين هذا "نزعة إرادية عقيمة"؟ وكيف مثابرة لينين . بعد سنوات من صلح بريست ليتوفسك . على الاعتقاد بان امتداد الثورة إلى الغرب والشرق أمر محتوم؟

لا يستطيع كراسو ان يوجد فارقا بين موقف لينين وموقف تروتسكي بصدد العلاقة الجدلية بين ثورة اكتوبر والثورة الأومية . إلا إذا نسب إلى تروتسكي ثلاث أفكار صبيانية وميكانيكية النزعة : فكرة ان الثورات "وشبكة" في أوروبا . وفكرة ان شروط الثورة متوفرة في جميع الأقطار الرأسمالية (وعلى الأقل الأقطار الأوروبية). وفكرة ان انتصار هذه الثورات "مؤكد". وغني عن

البيان ان كراسو يعجز عن الإتيان بشاهد على أي هذه الإدعاءات الثلاثة .  
وبالمقابل يسهل إيجاد براهين قاطعة على العكس.

فلقد أعلن تروتسكي ولينين معا في مؤتمر الكومنترن الثالث عام 1921 (وكانا يمثلان الجناح اليميني في هذا المؤتمر) ان الرأسمالية قد حصلت على فترة من الراحة في أوروبا بعد الموجة الثورية الأولى في أعقاب الحرب . ولم تكن "الثورة الفورية" هي المطروحة على جدول الأعمال آنذاك. وإنما تهيئة الأحزاب الشيوعية لأداء دورها في الثورة البلشفية . أي رسم سياسة صحيحة تستهدف كسب غالبية الطلقة العاملة وخلق كادر وقيادة قادرين على إيصال الأحزاب إلى النصر متى توفرت ظروف ثورية جديدة. ولقد أعلن تروتسكي بالحرف الواحد في عام 1927 في معرض نقده ل"مشروع برنامج الأممية الشيوعية" الذي وضعه بوخارين وستالين : " ان الطابع الثوري لعصرنا لا يكمن في الإمكانيات التي يتيحها هذا الأخير لانجاز الثورة . أي للاستيلاء على السلطة في أي لحظة . وإنما يكمن طابعه الثوري في التقلبات العميقة والعنيفة وفي الانتقالات المبالغتة من وضع ثوري ناجز (يمكن فيه للحزب الشيوعي أن يحاول استلام السلطة ) إلى انتصار الثورة المضادة الفاشية أو نصف الفاشية. ومن انتصار الثورة المضادة هذا إلى نظام حكم معتدل مؤقت ("ائتلاف اليسار". دخول الاشتراكية-الديمقراطية إلى هذا الائتلاف . وصول ماكدونالد إلى السلطة . الخ) يتلوه على الفور تفاقم للتناحرات وأزمة جديدة تطرح مشكلة السلطة بكل حدتها". (13). وفي كتاباته الأخيرة يصف باستمرار عصرنا بأنه تعاقب سريع من الثورات والثورات المضادة و"الاستقرارات المؤقتة". تعاقب يخلق الشروط الموضوعية لبناء حزب ثوري طليعي من الطراز اللينيني .

هنا بالطبع تكمن عقدة السؤال الذي امتنع كراسو حتى عن طرحه . وهذه هي علة عجزه عن الإجابة عليه . ما هي الفرضية الأساسية التي يقوم عليه المفهوم اللينيني عن التنظيم؟ إنها . كما لاحظ جورج لوكاش بسداد رأي . فرضية أنية الثورة (14). أي إعداد البروليتاريا عن وعي وسبق تصميم لاستلام السلطة متى توفرت أوضاع ثورية . والقناعة العميقة، المبنية على أساس القوانين الموضوعية لتطور المجتمع الروسي . بأن مثل هذه الأوضاع الثورية لا بد ان تقوم عاجلا أو آجلا . وعندما كتب لينين كتابه عن "الإمبريالية" تحت تأثير "الرأسمال المالي" لهلفردينغ. وعندما جرد نتائج الحرب العالمية الأولى. سحب مفهوم أنية الثورة ذلك على نظام العلم الإمبريالي بأسره: فالحلقات

الأضعف ستتخطم قبل غيرها والسلسلة بأكملها ستتفكك تدريجيا . ذلكم هو مبرر ندائه إلى تشكيل الأممية الثالثة . وذلك ما كانه برنامج الكومنترن الوليد . والحال ان هذا تصور مركزي لا محال للمزاج معه . فإما انه تصور صحيح نظريا أيده التاريخ-وفي هذه الحال لا يكون "القانون الثالث للثورة الدائمة" هو وحده الصحيح . بل ينبغي أيضا ان تعزى هزائم الطبقة العاملة بين 1920 و 1936 بلا لبس إلى عدم كفاءة القادة . وإما ان ما أصبح ، بعد 4 آب 1914 (15). التصور الأساسي لدى لينين كان خاطئا- إذ أظهرت التجربة ان الشروط الموضوعية لم تكن ناضجة لظهور أوضاع ثورية بشكل دوري في سائر أرجاء روسيا- وفي الحال لا يكون "القانون الثالث للثورة الدائمة" الذي قال تروتسكي هو وحده "الخاطئ نظريا" كما يزعم كراسو . بل أن كل مجهود لينين لبناء أحزاب شيوعية ولتنظيمها بهدف قيادة البروليتاريا إلى الاستيلاء على السلطة لن يعدو أن يكون أكثر من نشاط انشقاقي مجرم يستأهل الإدانة . أليس هذا ما زعمه ، على كل حال . حجة ان "الشروط السياسية – الاجتماعية" في الغرب ليست "ناضجة" للثورة . وأن لينين "لم يكن قادرا على فهم الفروق الأساسية بين البنى الاجتماعية الروسية وبين البنى الاجتماعية في أوروبا الغربية" ؟

ومن السهل ان نقوم بجرده سريعة . وعلى الأقل بخصوص التجارب التاريخية . فإذا تركنا جانبا الأمم الصغيرة . ألفينا ان ثمة وضعاً ثوريا قد قام في ألمانيا في 1918 – 1919 ، وفي 1920 ، وفي 1923 ، وأن فرصا كبيرة قد سنحت لتحويل إمكانية الدفاع المظفر ضد الخطر النازي إلى وضع ثوري جديد في مستهل الثلاثينات . كذلك قام وضع ثوري في إسبانيا في 1931 ، و1934 ، و1936 ، و1937 ، وقام مثل هذا الوضع في إيطاليا في 1920 ، و1945 ، و1948 (يوم محاولة اغتيال تولياتي) . وكذلك الحال بالنسبة فرنسا في 1936 و 1944 و 1947 . وحتى في بريطانيا حدث إضراب عام 1925 ... ويشهد العديد من الكتابات ، بما فيها كتابات من هم ليسوا بشيوعيين أو ثوريين ، على رفض الجماهير ، في جميع تلك الأوضاع ، تحمل النظام الرأسمالي لحقبة أخرى من الزمن ورغبتها الغريزية في ان تأخذ بين يديها مستقبل المجتمع قد ترافقا بحيرة وانقسام بله بشلل في صفوف الطبقات الحاكمة- الأمر الذي نجم عنه وضع ثوري كلاسيكي بموجب تعريف لينين . واو طبقنا المخطط على سائر أرجاء العالم ، وأدرجنا فيه الثورة الصينية في العشرينات والانتفاضة الفيتنامية في مستهل الثلاثينات والثورتين الجارفتين

اللتين أعقبتهما مع نهاية الحرب العالمية الثانية واللتين حفزتا الحركة الثورية في جميع الأقطار المستعمرة ، لوجدنا ان تعريف نصف قرن هذا من الزمن بأنه "عصر الثورة الدائمة" – وه العنوان الذي اختاره اسحق دويتشر وجورج نوفاك لكراسة من نصوص تروتسكي المختارة- يلخص فعلا وعلى أحسن وجه تجربة تاريخية كاملة .

لننتقل الآن إلى توكيد كراسو الأبعد عن الصواب والأبعث على الاستغراب : اعني توكيده بأن فشل الثورة الأوروبية في العشرينات والثلاثينات ومستهل الأربعينات لهو البرهان القاطع على "تفوق جهة نظر ستالين على وجهات نظر تروتسكي". لماذا؟ لا تروتسكي كان يتوقع ثورات مظفرة بينما ستالين " يستخف بإمكانيات نجاح الثورات في أوروبا" ، ولكن أليس العكس هو الصحيح على وجه الدقة ؟ فترو تسكي ما كان يؤمن بصورة من الصور بثورات يكتب لها الظفر تلقائيا لا في أوروبا ولا في أي مكان آخر، وما كان له من هم غير النضال بلا كلل في سبيل سياسة صحيحة للحركة الشيوعية ، سياسة كانت سنتيح – ان لم نقل في المرة الأولى فعلى الأقل في المرة الثانية أو الثالثة – إمكانية تحويل الأوضاع الثورية إلى انتصارات ثورية . أما ستالين فقد ساهم ، بالسياسة الخاطئة التي انتهجها ، في فشل تلك الثورات مساهمة جلي، فقد ألزم الشيوعيين الصينيين بوضع كامل ثقتهم في تشانغ كاي شيك ، وعبر عن ثقته التامة بجلادهم ووصفه ب"الحليف الوفي" في خطاب عام له عشية مذبحه عمال شانغهاي بناء على أوامر تشانغ كاي شيك(16). وقد أصدر أمره لاعتبار الاشتراكية-الديمقراطية العدو الألد للشيوعيين الألمان، زاعما ان هتلر سيعجز عن الاستيلاء على السلطة أو سيعجز عن الحفاظ عليها أكثر من بضعة شهور في حال استيلائه عليها : وعلى هذا فلن يكون هناك من فائز غير الشيوعيين ، كما نصح الشيوعيين الاسبان بإيقاف ثورتهم و"بكسب الحرب أولا" عن طريق التحالف مع البورجوازية "الليبرالية" . أما الشيوعيين الفرنسيون والايطاليون فقد أسدى إليهم النصح ببناء " ديموقراطية جديدة " لا تكون بورجوازية مئة بالمئة لان بعض الوزراء الشيوعيين سيشاركون فيها ولان بعض التأميمات ستصاحبها.

وفي كل مكان انتهت هذه السياسة إلى الكوارث ، ومع ذلك نجد كراسو ، حتى في معرض جرده للفواجع ، يخلص إلى الاستنتاج بان وجهات نظر ستالين كانت متفوقة على نحو لا يقبل جدالا على وجهات نظر تروتسكي لا ستالين كان " يستخف بإمكانيات نجاح الثورات في أوروبا " ! ترى ألم يكن

قيادة ستالين للأمم المتحدة ، ولتحويل الكومنترن من أداة الثورة العالمية إلى وسيلة دبلوماسية بين يدي الحكومة السوفياتية ، ولنظرية الاشتراكية في بلد واحد، دخل في فشل الثورات في أوروبا ؟ أم ان كراسو لن يحجم حتى عن الادعاء بان ستالين قد نظم عن عمد تلك الهزائم " برهانا " على "تفوق" وجهات نظره على وجهات نظر تروتسكي ؟

إننا لنطرح كماركسيين سؤالا أخيرا ، ف"الأخطاء" التي ارتكبتها ستالين في قيادته للأمم المتحدة الشيوعية لا يمكن تفسيرها بالقول بأنها نتائج عارضة ل"ضيق أفقه" أو ل"انعزاليته الروسية" ، كما لا يمكن تفسير النتائج المفجعة لسياسته الداخلية بصيغة "عبادة الشخصية" غير الماركسية (17)، ف"أخطائه" التكتيكية لا تتسجم أبدا مع مصالح البروليتاريا السوفياتية أو الأممية ، فلقد كلفت الملايين من القتلى الذين كان في المستطاع إنقاذهم ، وسنوات عديدة من تضحيات لا مجدوية وآلام يستحيل وصفها تحت ظل الاضطهاد الفاشي . فكيف نفسر ، والحالة هذه ، ان يكون ستالين قد عارض بحزم ، على مدى حوالي ثلاثين عاما ، وباستثناء المناطق التي وقعت تحت نفوذ الجيش الأحمر ، جميع المحاولات التي صدرت عن الأحزاب الشيوعية للاستيلاء على السلطة ، أو ان يكون قد وضع العصي بين عجلاتها؟(18). لا مرأى في ان الواجب يقضي بإيجاد تفسير اجتماعي لهذه الواقعة المدهشة ، فمثل السياسة المنهجية لا يمكن تفسيرها إلا بوصفها تعبيراً عن المصالح الخصوصية لفئة اجتماعية محددة داخل المجتمع السوفياتي : البيروقراطية

هذه الفئة ليست بطبقة جديدة، فهي لا تلعب دورا خاصا ولا ضروريا من وجهة النظر الموضوعية في عملية الإنتاج. إنها نتاج للبروليتاريا يرتع في بحبوحة الامتيازات ، رأى النور بعد الاستيلاء على السلطة ، في شروط غير ملائمة موضوعيا لازدهار الديمقراطية الاشتراكية ، وهي كالبروليتاريا مرتبطة جوهرى الارتباط بالملكية الجماعية ومعارضة الرأسمالية : ولهذا سحق ستالين في نهاية المطاف الكولاك و قاوم الغزو النازي ، والبيروقراطية لم تقوض المنجزات الاجتماعية-الاقتصادية الأساسية لثورة أكتوبر ، بل على العكس حافظت عليها ولو بوسائل متعارضة أكثر فأكثر مع الأهداف الأساسية للاشتراكية . ولقد قاوم نمط الإنتاج الاشتراكي ، وليد ثورة أكتوبر ، بنجاح جميع الهجمات الخارجية وأعمال التخريب الداخلية كافة . وقد برهن لمئات الملايين من البشر على تفوقه ، هذه الواقعة التاريخية الأساسية هي التي تفسر لماذا كان في مقدور الثورة العالمية . بدلا من ان تتأخر عشرات السنوات كما

يؤكد ذلك المتشائمون- ان تعاود النهوض بسهولة كبيرة وان تنتزع انتصارات هامة بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن البيروقراطية ، بخلاف البروليتاريا ، محافظة في جوهرها وتخشى أي اندفاع جديدة للثورة العالمية لان مثل هذه الاندفاع قد توقظ الروح النضالية العمالية في الداخل وتهدد سلطة البيروقراطية وامتيازاتها ، وتعكي نظرية وممارسة "الاشتراكية في بلد واحد" ثم نظرية وممارسة "التعايش السلمي" الطبيعية المتناقضة اجتماعيا لهذه البيروقراطية . فهي تدافع عن نفسها بحزم وصلابة متى تعرضت لخطر الإبادة والإفناء على يد الإمبريالية. وتسعى إلى توسيع منطقة نفوذها متى كان ذلك لا يهدد بالإخلال بتوازن القوى الاجتماعي على الصعيد العالمي. ولكنها مرتبطة جوهريا بالوضع الراهن القائم. وقد تنبه لذلك في آخر المطاف رجال الدولة الأميركيون . ولقد كان المفروض بكراسو ان يسلط الضوء على الأقل على هذا الاستمرار في السياسة الخارجية السوفياتية منذ موت لينين وان يحاول تقديم تفسير اجتماعي لذلك . ولو فعل ذلك لما كان وجد أمامه غير التفسير الذي صاغه تروتسكي .

لا ريب في البيروقراطية والذائدين عنها يستطيعون ان يحاولوا إضفاء صفة عقلانية على هذه السياسة بزعمهم أنها تسعى فقط إلى حماية الاتحاد السوفياتي من تهديد البلدان الرأسمالية التي لا بد ان تتحالف فيما بينها وتتحد ضده فيما إذا أحست بأنها موضع استفزاز من قبل الثورات في أي مكان من العالم . وبهذا المنطق نفسه ادعى الاشتراكيون-الديمقراطيون على الدوام أنهم لا يعارضون الثورات إلا دفاعا عن منظمات ومكاسب الطبقة العاملة التي لا مندوحة من ان تسحق تحت أقدام الرجعية إذا ما أحست البورجوازية بأنها موضع "استفزاز" من قبل نزعة التطرف الثوري . بيد ان ماركس قد علمنا ألا نحكم على الأحزاب والفئات الاجتماعية تبعا لتحاليلها الذاتية ونياتها . وإنما تبعا لدورها الموضوعي داخل المجتمع وللنتائج الموضوعية لأعمالها. والطبيعة الاجتماعية الحقيقية للبيروقراطية السوفياتية تنعكس في محصلة أعمالها . تماما كما كان لينين يرى ان الطبيعة الاجتماعية الحقيقية للبيروقراطية النقابية وللملاكات العليا البورجوازية الصغيرة التابعة للاشتراكية-الديمقراطية في البلدان الإمبريالية هي التي تفسر معارضتها المنطقية للثورة الاشتراكية.

ها نحن قد عدنا من جديد إلى نقطة انطلاقنا . فالماركسيون يتفهمون الاستقلال النسبي للمؤسسات السياسية . ولكن هذا التفهم يقضى بحثا وتمحيصا دائبين في الجذور الاجتماعية لهذه المؤسسات وفي المصالح الاجتماعية التي

تخدمها في التحليل الأخير. وهذا معناه أنه كلما ارتفعت هذه المؤسسات فوق الطبقات الاجتماعية التي يفترض فيها من حيث المبدأ تخدمها. نرعت إلى الدفاع عن نفسها وإلى الحفاظ على ذاتها. وازدادت بالتالي إمكانية تناقضها مع المصالح التاريخية للطبقة التي تفرعت عنها. هكذا فهم لينين وماركس المشكلة. بهذا المعنى فإن كراسو عندما يتهم تروتسكي ب"التهوين" من إمكانية الاستقلال الذاتي ل"الأحزاب" و"الأمم". فإنما يتهمه إجمالاً كان ماركسيا ولينينيا. وإنما لعل أتم قناعة بأن تروتسكي ما كان إلا ليرحب بهذه التهمة.

## الهوامش:

- 1- إنصافاً لتروتسكي يجدر بنا أن نضيف أن لينين قد نبذ هو الآخر قبل 1917 ضرورة تبني ديكتاتورية البروليتاريا كهدف إستراتيجي للثورة الروسية التي كانت نذرها تلوح في الأفق. ولقد جاء انتصار ثورة أكتوبر كنتيجة تاريخية مركبة للنظرية والممارسة اللينينيتين عن الحزب كطليعة ثورية وللنظرية والممارسة التروتسكيتين عن الثورة الدائمة.
- 2- يؤكد برنامج هانفيلد للاشتراكية- الديمقراطية النمساوية في عام 1889 بلا لبس أن " الوعي الاشتراكي لا بد أن يدخل من الخارج على النضال الطبقي البروليتاري ". وقد كرس كاوتسكي مقالا في "النيوزايت" في 17 نيسان 1901 لمشكلة العلاقة بين المثقفين والعمال الثوريين وصاغ فيه معظم مفاهيم التنظيم اللينيني. ولا مجال للشك في أن هذا المقال، إذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ نشره، كان له تأثير مباشر على لينين عندما كتب "ما العمل؟".
- 3- ربما كان ينبغي أن نضيف أن ريبية تروتسكي الغريزية تجاه المثقفين الهواة الذين لا يقر لهم قرار على رأي والذين قد ينتمون إلى حزب عمالي، كانت موروثاً عن ماركس، وكان لينين نفسه يشاطره فيها، وهذه نقطة أغفلها كراسو بأرابة. انظر رسالة ماركس وانجلز إلى بييل ولبنكسخت وبراك في 17-18 أيلول 1879. وانظر أيضاً لينين في "ما العمل؟" حيث يدين "المثقفين البورجوازيين الذين يخشون انضباطية البروليتاريا وتنظيمها". ويقول كراسو أن "من مهازل القدر المريرة" أن يكون تروتسكي قد وجد نفسه مكرها على التناقض مع "مثقفي الصالونات" الذين طالما ابغضهم وازدراهم، من طراز برنهام أو شاختمان. أن كراسو هو الذي لا يفهم هنا وظيفة هذه المجادلات التربوية في بناء الحزب. تلك الوظيفة التي فهمها جيدا اساطين الماركسية.
- 4- دويتشر: "النبي مسلحا".
- 5- "المؤتمر التأسيسي للأمم المتحدة"، منشورات حزب العمال الاشتراكي نيويورك 1939: ص16
- 6- ليست منفصلة تماما-مثلما لا تستطيع البيروقراطية الفاشية أبد الانفصال تمام الانفصال عن الرأسمالية الاحتكارية. بيد أن الدفاع عن المصالح التاريخية الطبقيّة مرتبط في كلتا الحالتين (عن الملكية الجماعية في الحالة الأولى، وعن الملكية الخاصة في الثانية) بمصادرة سياسية عميقة لملكية هذه الطبقة، بل بالأم فردية كبيرة بالنسبة إلى بعض أعطائها.
- 7- أن تعداد تلك الأخطاء يفتقر إلى الدقة في عدد من النقاط. فكراسو ينسب خطأ إلى تروتسكي فكرة "تجيش اليد العاملة" والواقع أن فكرة التجيش هذه كانت قرارا جماعيا للحزب اتخذ في المؤتمر التاسع. ويزعم كراسو أن تروتسكي لم يناضل في سبيل نشر وصية لينين. والواقع أن

تروتسكي قد خذلته قيادة الحزب بصدده هذه المسألة، ولم يشأ أن يخرق الانضباط لأسباب سنعود إليها في ما بعد ويؤكد كراسو أن تروتسكي عجز تماما عن أن يدرك أن ستالين "عاقد النية" على إبعاده عن الحزب وقد يكون هذا صحيحا في عام 1923. ولكن ما من إنسان كان يدرك ذلك في تلك الحقبة. وكان ستالين نفسه لا يفكر على الأرجح بالجوء إلى هذا الإجراء الشديد. وبالمقابل أدرك تروتسكي قبل سائر زعماء البلاشفة خطورة الوضع في الحزب وفي الدولة. ذلك الوضع الذي لم يكن هناك مفر من أن يفضي، بالنظر إلى طباع ستالين، إلى عمليات فصل وطرده ثم إلى إجراءات قمع دموية. ويذهب كراسو إلى القول بأن تروتسكي لم يعر اهتماما لانقسام الترويك ( ستالين - كامنيف - زينوفيف ) على نفسها. ولكنه ينسى أن يضيف أن المعارضة اليسارية الموحدة التي ضمت تروتسكي من جهة زينوفيف وكامنيف من الجهة الثانية قد ولدت من ذلك الانقسام، وأن هذه الجبهة المتحدة لم تحطم في عام 1927-1928 على يد تروتسكي وأصدقائه، وإنما على يد أنصار زينوفيف.

8- إنصافا للينين ينبغي أن نضيف بأنه كان يسعى ، في الوقت الذي ارتكب فيه تلك الأخطاء، إلى إقرار سلسلة من التدابير الاحترازية لعرقلة انزلاق الدولة والحرب على منحدر البيروقراطية. فنظام الترويك حد فعلا من سلطة مدراء المصانع. والنقابات منحت المزيد من الحقوق ( بصدده هذه النقطة كانت انتقادات لينين لمقترحات تروتسكي صائبة). واستمر العمل بنظام "الأجر الأقصى" لملاكات الحرب. وفي الوقت الذي جرى فيه إلغاء الأجنحة. عزز الحق في تشكيل اتجاهات وتلقى شليابينيكوف وعدا بأن يطبع أفكاره المعارضة على مئات الآلاف من النسخ. ولكن التاريخ اظهر أنه كلما ازدادت سلبية البروليتاريا سياسيا وكلما تنامت سلطة البيروقراطية. سهل على هذه الأخيرة إلغاء تلك التدابير الاحترازية على نحو مباغت. وهذا ما حدث فعلا في مستهل الثلاثينات.

9- يقول كراسو عن صيغة "الثورة الدائمة" إنها غير موائمة وتفقر إلى الدقة العلمية، متجاهلا أن ماركس هو الذي اخترعها.

10- يبين تروتسكي في أحد فصول نقده ل"مشروع برنامج الكومنترن" بتفصيل لا مستزاد عليه أن ستالين وحلفاؤه قد خلطوا عن عمد بين مشكلة إمكان انتصار ثورة اشتراكية في بلد واحد- الأمر الذي تترتب عليه ضرورة البدء بتنظيم وبناء اشتراكيين للاقتصاد- وبين مشكلة الانتصار النهائي للاشتراكية، أي بناء مجتمع اشتراكي كامل التطور ("الأممية الثالثة بعد لينين"). ومن المفيد أن نلاحظ أن ستالين نفسه قد كتب في عام 1924، في الطبعة الروسية الأولى ل"اللينين واللينينية": " أن جهود بلد واحد ، ولا سيما إذا كان فلاحيا كروسيا، لا تكفي لانتصار الاشتراكية نهائيا ولتنظيم الإنتاج الاشتراكي". والأسباب الاقتصادية التي علل بها تروتسكي استحالة "الاشتراكية في بلد واحد" تصبح مفهومة تماما ، على الرغم من إبهامها لدى كراسو ، إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر "الانتصار النهائي" لا من وجهة نظر "بداية البناء". فلا مرية في أن الاقتصاد الاشتراكي الناضج الراشد ملزم بامتلاك مستوى من انتاجية العمل أعلى من مستوى الاقتصاديات الرأسمالية الأكثر تقدما. وستالين وبوخارين نفسيهما يقران بذلك. ولقد كان تروتسكي يرى بكل بساطة أنه من المستحيل في إطار اقتصاد استكفائي، ادراك مستوى من الانتاجية أعلى من المستوى الذي تدرکه الأقطار الامبريالية بفضل تقسيمها العالمي للعمل. وهو لا يزعم في أي مكان البتة أن هذا لا بد أن يفضي حتما إلى "تخريب" اقتصاد الإتحاد السوفياتي المخطط. إنما يعلن فقط أن ذلك قد يغدو مصدرا لمصادمات عنيفة ولتناقضات لن تسمح للإتحاد السوفياتي بأن يشيد مجتمعا بلا طبقات. ولقد أيد التاريخ هذا التشخيص بحذافيره.

11- هذا مثال واحد من بين أمثلة أخرى عن واقع أن ستالين لم يتبن برنامج تروتسكي. وإنما بعض أجزاء هذا البرنامج فقط. دونما اعتبار لمنطقه الداخلي فلقد ناضلت المعارضة منذ عام 1923 في سبيل بناء مصنع للجرارات في تزارترين. ولقد لاقى المشروع قبولا. ولكن المصنع لم يبن إلا في عام 1928. ولو أن الجرارات أنتجت منذ 1924-1925. ولو أن الكولخوزات تطورت تدريجيا جاذبة إليها الفلاحين الفقراء بطوع إرادتهم بفضل إنتاجية العمل العالية و المداخل المرتفعة في القطاع التعاوني. لكان الجمع بين التصنيع والتجميع في الزراعة قد خلق وضعًا مختلفًا كل الاختلاف عن الوضع المفجع الذي نشأ في فترة 1928-1932 والذي ما يزال الإتحاد السوفياتي يعاني من عواقبه حتى اليوم.

12- اقترحت المعارضة كمصدر من مصادر التراكم فرض ضريبة خاصة على الفلاحين الأغنياء وتقليص النفقات الإدارية بمقدار مليار روبل ذهبي. بدلا من تخفيض مستوى حياة العمال والفلاحين بلا شفقة كما أمر ستالين. ولو أن الخطة الخمسية سحبت على ثماني سنين أو عشر بدلا من خمس. لكانت وفرت على الجماهير الشعبية الكبير من القيود الثقيلة الوطأة.

13- تروتسكي: "الأممية الثالثة بعد لينين" -نيويورك 1936- ص 71-82.

14- لوكاش: "لينين" -باريس 1965 - ص 28-29. (أنظر ترجمة هذه الدراسة في كتابه المترجم "في الفكر اللينيني" -دار الحقيقة- بيروت 1970).

15- 4 آب 1914: يوم اندلاع الحرب العالمية الأولى، واليوم الذي صوت فيه الاشتراكيون-الديموقراطيون الألمان الخونة للماركسية على اعتمادات الحرب الامبريالية. -المغرب-

16- ان القيادة الماوية للحزب الشيوعي الصيني تزور الحقيقة التاريخية عن عمد وتعاقد في إلقاء تبعة تلك "الأخطاء" على شن دو كسيو زعيم الحرب الشيوعي الصيني في مرحلة 1925-1927. وتتجاهل انه كان يعمل طبقا للتعليمات المباشرة واللحوحة الصادرة عن الأممية الشيوعية. ولا سيما تعليمات ستالين شخصيا.

17- ان الكثيرين يتساءلون (كما يتساءل كراسو) عم إذا لم تكن سياسة ستالين قد بررها انتصار الإتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية. ومن يرى الأمور على هذا النحو يقدم صورة زائفة للواقع وبغض النظر تماما عن الثمن الباهظ المدفوع مقابل ذلك الانتصار. ويتناسى الضحايا اللامجدية التي لا يحصى لها عد والهزائم التي لا حصر لها (بما في ذلك الهزائم العسكرية: ان أدبا كاملا كرس نفسه لهذا الموضوع في الإتحاد السوفياتي). لنفرض أن رجلا يقطن في الطابق الخامس ويرفض استعمال المصعد أو مجرد الضغط على الزر الكهربائي للحصول على نور ويصر على الهبوط في الظلام على الدرج ضيق. وكما هو متوقع تزل به قدمه ويتدحرج. ولكن عنقه لا تدق بفضل قوة بنيته. وإنما ذراعه وساقاه فحسب. وبعد مرور أربع سنوات يتمكن من معاودة المشي على عكازات. وأن لفي هذا دليلا أكيدا على متانة بنيانه، ولكن أهذه حجة ضد استعمال المصعد؟

18- لقد حاول ستالين، كما نعلم اليوم، ان يؤثر على الشيوعيين اليوغوسلاف والصينيين عندما نصحهم بعدم استلام السلطة. وقد اصدر تعليماته إلى الحزب الشيوعي الفيتنامي بالبقاء داخل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية التي بدل اسمها فأصبح "الاتحاد الفرنسي". كما ان الحزب الكوبي، الذي تربى على يديه، رفض بغناد طوال سنوات عديدة ان تسير جنبا إلى جنب مع فيدل كاسترو على طريق ثورة اشتراكية مظفرة في كوبا. أحتجاج هذه الوقائع إلى تفسير سوسيولوجي أو إلى محض تفسير سيكولوجي.

